كتاب الهلال



ذكريات من حياتي

د. عبد العظيم أنيس



سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٦١٨ - ربيع أول - يونيه ٢٠٠٢

No - 618 - Ju - 2002

أسعار بيع العدد ٥٠٠ قرش

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١.٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبى / أبو ظبى ١٥ درهم - سلطنة عمان ١.٥ ريال - المغرب ٢٥ درهما - فلسطين ٢.٥ دولار - سويسرا ٥ فرنكات

عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

ذكريات من حياتى

د. عبدالعظيم أنيس

●

دار الهلال

الغلاف للفنان
محمد ابو طالب

الاهداء

إلى ذكرى شقيقتى سعاد أنيس السيدة الجليلة التى وقفت إلى جانبى دائماً فى ظروف حياتى الصعبة.

تقديم

ترددت طويلا عندما طرحت فكرة إصدار هذا الكتاب ، وأخذت أقلب الأمر ..

هل حياتى تستحق أن يصدر عنها كتاب . وأخيرا وافقت ، بعد أن اتفقت على عنوانه «ذكريات من حياتى» .

فأنا لا أصدر كتابا شاملاً عن حياتى وانجازاتى بالمعنى الذى يقصده الاوربيون ، تحت اسم "autobiojraphy" لأنى أولا لم أتعرض لكل ظروف ومسيرة حياتى من ناحية ، وثانيا لأننى مقتنع أن حياتى هذه وأحداثها لا تستحق كتابا من النوع الذى يصدره الغربيون ، فمن أنا حتى أطمع فى كتاب من هذا النوع .

والحقيقة أن بعض مادة هذا الكتاب قد سبق نشرها على هيئة مقالات فى مجلة الهلال ، أو الاهالى أو العربى «المصرية والكويتية» أو وردت فى كتب صدرت لى فى مناسبات مختلفة ، وأقتنعت عن صدق أنها قد تكون مفيدة ، للقارىء لاستخلاص دروس منها .

وقد مررت فى حياتى بظروف صعبة كثيرة واشتغلت فى أعمال متباعدة ، سنوات مختلفة من حياتى ، فأنا فى الأصل استاذ رياضيات، قمت بتعليمها فى جامعات مصر الثلاث الرئيسية .. جامعة القاهرة - جامعة عين شمس - جامعة الاسكندرية .

كما قمت بتدريسها ، فى إحدى كليات جامعة لندن سنوات ١٩٥٥، - ١٩٥٦، .. ولى أبحاث علمية عديدة ، منشورة فى المجلات العلمية الدولية ومع ذلك، فقد شاءت الظروف أن اشتغل صحفيا سنوات من حياتى . وأن اتخصص فى الشئون العربية ، ولقد قضيت سبع سنوات من حياتى معتقلا ، بسبب أفكارى السياسية اليسارية ، خمس سنوات وثلاثة شهور فى معتقلات عبد الناصر .. وسنتين الا ثلاثة شهور فى معتقلات الملك فاروق ، وقد قضيت أيام الملك فاروق فى معتقلات أبو قير ، ثم الهاكستيب ثم الطور على البحر الأحمر .

أما معتقلات عبد الناصر فقد كانت فى الاساس فى اوردى ابو زعبل ، ثم معتقل الواحات وعلى الرغم من أننى قدمت إلى محكمة الجنايات أيام الملكية ، فأصدر قاضى الاحالة انذاك أنه لا وجه لاقامة الدعوة ضدى

إلا أننى ظللت معتقلا حتى جاءت الحكومة الوفدية عام ١٩٥٠ وأفرجت عن كل المعتقلين ..

وفى أيام حكم عبد الناصر قدمت مع آخرين لمجلس عسكرى برئاسة رئيس سلاح المدفعية آنذاك اللواء هلال عبد الله هلال ، وكنت أنا والصديق محمود أمين العالم الوحيدين اللذين حكم لهما بالبراءة ، وعلي ذلك بقيت فى الواحات حتى أفرج عن جميع المثقفين والمحكوم عليهم بالسجن .

واليوم وأنا اقترب من الثمانين ، لست نادما على أى شىء .. فقد كان همى طوال حياتى الدفاع عن الفقراء والمظلومين وعن استقلال مصر ، وحقها فى حياة كريمة وعندما أتأمل هذا الشريط الطويل من حياتى من طفولتى فى حى الأزهر ، إلى اليوم .

أجدنى راضيا عما قمت به ، وضحيت من أجله مهما كانت قسوة الأيام .

وأرجو أن يجد القارىء على صفحات هذا الكتاب

ما يقنعه بأنه جدير بالقراءة

وأن به بعض الدروس المفيدة

د. عبد العظيم أنيس

البـــاب الاول

التكـــوين

ولدت في شهر يوليو عام ١٩٢٢ فى حى الأزهر لعائلة لها ثمانية من الأبناء، أربعة ذكور وأربع إناث، وكنت أصغر الذكور وأصغر الإناث باستثناء واحدة، وكان بيتنا يقع على بعد خطوات قليلة من الجامع الأزهر، وكان هذا بيت جدى لأبى فى حقيقة الأمر الذى كان يعمل فى صناعة البناء ويطلق عليه من قبيل التجاوز لقب «مقاول» فقد كان لديه عدد محدود من المساعدين من بينهم أبى وشقيقاه يساعدونه فى بناء بيوت صغيرة أو مساجد متواضعة وقيل إن جدتى لأبى ساعدت جدى فى بناء البيت الذى كنا نسكن فيه بالأزهر.

كانت عائلة أبى جميعا من الحرفيين نزحت أصلا من إحدى قرى الشرقية واستقرت بجوار مسجد ابن بنت رسول الله تلتمس في جواره البركة، فمنهم من كان صاحب محل جزارة أو كان نجارا أو احترف صناعة البناء كما فعل جدى. ولقد تعلم أبى وشقيقاه خبرة صناعة البناء عن أبيهم ثم انفصل كل واحد منهم عن أبيه بعد الزواج، وارتبطت أعمال أبى بوزارة الأوقاف خصوصا لتركيزه على بناء المساجد فى

المراكز والعواصم المختلفة لمحافظات مصر، بينما تخصص أعمامي في عمليات ترميم المساجد الأثرية وبالتالي تركزت علاقاتهم بمصلحة الآثار.

وكانت عائلة أمي ذات صلة أيضا بصناعة البناء، ومن هنا تم زواج أبي بأمي. فقد كان جدى لأمي مقاولا كبيرا نسبيا بمقاييس عصره، وكان بارعا في صناعته إلى درجة أنه أطلق عليه لقب «المهندس» وهكذا اكتسبت أسرته هذا اللقب من بعده. ولقد كسب جدى لأمي كثيرا وأضاع معظم ما كسبه في أهواء الشرب والنساء. على عكس جدى لأبي الذي كان شديد الحرص على ماله، فضلا عن أنه كان شديد الإسراف في منزله. وقد تزوج سيدة تركية الأصل هي جدتي لأمي لا أتذكر شيئا عنها وإن كنت أسمع دائما أنها من فرط سمنتها كانت عاجزة عن المشي في السنوات الأخيرة من حياتها فكان أولادها ينقلونها على «صينية» عشاء كبيرة إذا أرادت الانتقال من غرفة إلى أخرى أو الذهاب إلى الحمام.

التعليم والأزهر

وعلى عكس عائلة أبى لم يمتهن أحد من أخوالى صناعة أبيهم، فقد كان الوضع التقليدى فى أسرة أمى هو التوجه نحو التعليم كطريق مضمون للحراك الاجتماعى. وكان التعليم آنذاك فى الأسرة يعني الذهاب أولا إلى الأزهر لحفظ القرآن ثم من هناك إلى تجهيزية دار العلوم ثم إلى دار العلوم للعمل بالتدريس فى مدارس الحكومة. هكذا فعل خالى زكى المهندس ومن بعده شقيقه كامل، وهكذا فعل من بعدهما شقيقى الأكبر إبراهيم. وكان أخوالى من الهمة فى التحصيل والتفوق فى الدراسة بحيث أرسل خالى زكى إلى بعثة لبريطانيا عام ١٩١٠ حيث قضى بها أربع سنوات وعاد للعمل فى تفتيش اللغة العربية كما أرسل شقيقه الأصغر كامل فى بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٢٣ وبقى فيها سبع سنوات وعاد عام ١٩٣٠ حيث عمل رئيسا لقسم الفهارس العربية بدار الكتب المصرية. وكان لهما شقيق أكبر - من الأم فقط - عرف فى الأسرة باسم الشيخ على الشهداوى درس أيضا فى

الأزهر وارتبط بالحزب الوطنى حتى أنه أرسل فى بعثة على نفقة الحزب إلى فرنسا لمدة ثلاث سنوات كان فيها معاونا لمصطفى كامل ومن بعده عبدالعزيز جاويش.

ازدواجية الإسم

إنما أشرت إلى هذا الوضع داخل أسرة أمى بشىء من التفصيل لسببين... أولهما أننى عندما ولدت عام ١٩٢٣ أرادت أمى أن تسمينى باسم «كامل» تيمنا بأخيها كامل الذى كان على وشك الذهاب إلى بريطانيا عندما ولدت. لكن جدتى لأبى - وكانت صاحبة شخصية قوية - اعترضت حتى لا يظن أحد أننى قبطى فاقترح والدى أن يكون اسمى فى شهادة الميلاد «عبد العظيم» منعا لأى لبس بينما ينادوننى فى البيت باسم شقيقها وهكذا نشأت أحمل اسمين: واحدا فى شهادة الميلاد ولا يعرفه أحد فى العائلة وآخر فى المنزل وظل هذا هو الوضع حتى دخلت الجامعة مما أدى إلى مفارقات طريفة كثيرة فى حياتى ولم يختف هذا الازدواج فى اسمى من حياتى إلا عندما تخرجت من

الجامعة وتزوجت فأصبح لى اسم واحد هو عبدالعظيم.

أما السبب الثانى للاستطراد عن أسرة أمي فهو أن جو التعليم الذى اندمجت فيه أسرة أمى أدى بطبيعة الحال إلى انحيازات سياسية مختلفة. فقد كان خالى الشيخ علي الشهداوى من أنصار الحزب الوطنى بينما كان خالى الأصغر كامل شديد الحماس للوفد ولسعد زغلول. وكثيرا ما تصارع الاثنان حول شئون السياسة. وفى هذا الجو انحاز شقيقى الأكبر إبراهيم إلى جانب الوفد، وكان وهو طالب فى دار العلوم كثير التردد علي بيت الأمة، يلقى القصائد الوطنية أمام سعد زغلول ومن بعده مصطفى النحاس ولهذا كان انحيازنا الأول - وأنا وأشقائى - إلى الوفد بطبيعة الحال.

ولقد بقيت فى حى الأزهر حتى سن الخامسة وذهبت إلى الكُتّاب بعض الوقت وأنا فى الرابعة من العمر. لكنى لا أتذكر من هذا إلا أن الكُتّاب كان بجوار منزلنا، وكانت هناك حنفية للمياه أمام الكُتّاب يتزاحم حولها الناس لملء صفائحهم

وأوانيهم وكانت جدتى لأبى تأتى لزيارتى فى الفصل وتعطينى نكلة (مليمين) أشترى بها من المدرس بعض الكعك. غير أن جدى بنى منزلا فى العباسية الغربية قريبا من شارع الملكة نازلى (شارع رمسيس اليوم). وكان البيت يتكون من دورين وبدروم سكنا نحن فى الدور الثانى وسكن عمى الأكبر فى الدور الأول بينما سكن عمى الأصغر فى البدروم. لقد تركنا حى الأزهر عام ١٩٢٨ فيما أظن وكانت أمى تقول آنذاك إننا «طلعنا» العباسية بعد موت سعد زغلول وكنت أدهش من استخدامها فعل «طلع» فى هذا السياق وأتساءل إن كان هذا بمعنى أن العباسية كانت أعلى فى أرضها من أرض حى الأزهر، أم أن «الطلوع» هنا بمعنى الصعود فى السلم الاجتماعى. ولقد تعودت أسر البورجوازية الصغيرة المقيمة فى حى الأزهر على مشروع الانتقال إلى حى العباسية بمجرد أن تسمح الظروف المالية ببناء منزل فى هذا الحى الجديد نسبيا. كانت معظم أراضى العباسية صحراوية ولذا كثر البناء فيها فى أوائل القرن وفى العشرينات وإليها انتقلت

عشرات الأسر. وكانت القاعدة العامة هى أن الأسر الثرية تبنى لها فيلات فى العباسية الشرقية. أما أسر البورجوازية الصغيرة فكانت تبنى فى العباسية الغربية أو تستأجر لها مسكنا هناك. ويذكرنى هذا التاريخ بما حدث لنجيب محفوظ الذى انتقلت أسرته قبلنا من الأزهر إلى شارع رضوان شكرى بالعباسية الغربية. وفى الحقيقة أن شارعنا لا يبعد عن شارع رضوان شكرى كثيرا.

ولقد كان انتقالنا إلى المنزل الجديد فى العباسية تحولا كبيرا فى حياتنا. فقد وجدنا أنفسنا نمشى ونلعب فى شوارع واسعة ونظيفة، وبالقرب من منزلنا كانت هناك حدائق غمرة الجميلة التى كانت تجمع أطفال الحى وتمثل متعة ما بعدها متعة لهم، وكانت منطقة شارع أحمد سعيد مليئة بالغيطان المخصصة لزراعة الخضراوات، وكثيرا ما كانت ترسلنى أمى إلى هناك لشراء السبانخ أو الكرنب. وكانت هناك أراض فضاء واسعة نلعب فيها الكرة، وبعد سنوات صار الاحتفال بالمولد النبوى يجرى فى صحراء العباسية وأصبح الموكب

المحمل بالكسوة الشريفة ينتهى هناك ومع أن صلتنا لم تنته بحي الأزهر لأن جدتي وجدى لأبى ظلا هناك، فإن هذه الصلة بدأت تفتر تدريجيا خصوصا بعدما ماتت جدتي فجأة بالسكتة القلبية عام ١٩٢٩ وانتقل جدى للإقامة معنا فى العباسية بعد ذلك بسنوات قليلة.

ألم فراق جدتى وأمى

ولقد كان حادث وفاة جدتى صدمة لى وأول مواجهة لمعنى الموت وأنا في هذه السن الصغيرة، فقد كنا نحبها حبا جما، وبدا لي اختفاؤها المفاجيء أمرا شديد الصعوبة. وكنا قد تعودنا أن ننتظرها بالساعات عند موقف ترام غمرة حيث كان الترام رقم ٥ والترام رقم ٢٢ ينتهيان، عندما نعرف أنها ستأتى لزيارتنا، حتى إذا ما نزلت من الترام صحبناها أنا وإخواتى وأولاد عمى في زفة كبيرة من موقف الترام إلى البيت، ولا عجب فى ذلك فقد كانت تحبنا وتنفحنا بالنقود وأنواع الحلوى المختلفة، وحتى اليوم مازلت أتذكر يوم هذا الحدث الجلل - حدث وفاتها - فقد دق بعض أقاربنا باب

منزلنا قبل الفجر بقليل وهرول أبى وأمى بسرعة وهما يهمسان. فلما طلع الصباح أخذنا أخى حسن - نحن الاخوة الثلاثة الصغار - معه وذهبنا مشيا إلى الدراسة عن طريق شارع مصنع الطرابيش وعندما أقتربنا من منزل جدى سمعنا صراخا وعويلا وبكى أخى حسن وقال لنا الخبر الحزين. ولقد كانت الصدمة الثانية والأكبر فى حياتى إزاء الموت عندما ماتت أمى عام ١٩٤٠ نتيجة الاصابة بالحمى، وكنت قد انهيت إمتحان السنة التوجيهية وكان عمرى آنذاك سبعة عشر عاما. وكنت شديد التعلق بأمى وأدت بى هذه الصدمة إلى تحولى إلى إنسان نباتى لا أذوق اللحم لسنوات ولم أستطع أن أخرج من إسار هذه الأزمة إلا قرب تخرجى من الجامعة.

عندما انتقلنا إلى حى العباسية كان من الطبيعى أن يدخلنى أهلى مدرسة تناسب سنى، ولقد دخلت مدرسة البرامونى الأولية وقضيت بها عامين قبل التقدم لامتحان القبول بالمدرسة الابتدائية، وكانت هذه المرحلة - مرحلة

المدرسة الأولية - تعيسة بالنسبة لى، ولشرح ذلك ينبغى أن أوضح أننى قد تعرضت وأنا فى الثالثة لحادثة - ونحن مازلنا فى حى الأزهر - كادت تؤدى بحياتى، فقد وقعت من على سلم منزلنا ونزفت من جرح فى الأسنان واللثة، ولابد أن هذا الجرح قد أهمل أو عولج بالأساليب الشعبية مما أدى إلى حدوث غرغرينة فى اللثة العليا، وذهب بى أهلى إلى المستشفى الايطالى بالعباسية وأجريت لى جراحة عاجلة أزيل فيها جزء من اللثة وعظمة الأنف وقضيت أياما بين الحياة والموت. فلما عوفيت اتضح لأهلى أنه ترتب على هذه العملية بعض التشويه فى الفم، وفى المدرسة الأولية كان الاطفال وبعض المدرسين يعيروننى بهذا التشويه، وكان مدرس اللغة العربية ينادينى للاجابة فيقول «قوم يا أشرم» إشارة إلى هذا العيب، وأعتقد أن الخجل والانطواء فى شخصيتى أنذاك إنما يعود إلى تلك الظروف، ولقد أدى هذا إلى كراهيتى للمدرسة وللذهاب إليها وإلى شدة تعلقى بأمى وكان ذهابى إلى المدرسة كل يوم مشكلة فقد كنت أبكى وأصرخ إلى أن

يحملنى الخادم على كتفه إلى باب المدرسة وهناك يتلقفنى الشيخ ناجى المسئول عن طابور الصباح فيأمر الفراش أن يخلع لى حذائى ثم يقوم هو بضربى على قدمىّ بضع خيرزانات لأكون عبرة للأطفال الآخرين، وفى بعض الاحيان كنت أهرب من المدرسة فى فترة بعد الظهر.

معاناة الدراسة الأولى

ذكرت هذه الوقائع لأوضح أننى لم أتعلم الكثير فى المدرسة الأولية، وعندما تقدمت عام ١٩٣١ لامتحان القبول بمدرسة الظاهر الابتدائية لم أنجح فى الامتحان بل رسبت بجدارة، وعندئذ أسرع أخى إبراهيم بتقديم أوراقى إلى مدرسة الحسينية الابتدائية ونجحت بالكاد فى امتحان القبول وهكذا قضيت مرحلة التعليم الابتدائى فى الحسينية الابتدائية (وهى قريبة من ميدان الجيش وقد شغلت المبنى بعد الثورة شركة مصر للمستحضرات الطبية) من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٣٥. كان التعليم الابتدائى بالمصروفات (عشرة جنيهات تدفع على ثلاث أقساط) إلا للمتفوقين أو نسبة ضئيلة جدا يتم

إعفاؤها بناء على تقديم شهادة فقر. ولم أكن من المتفوقين، ومع أن الازمة الاقتصادية العالمية ١٩٢٩ - ١٩٣٢ قد أصابت أبى بضرر شديد وصل إلى حد الافلاس إلا أننا لم نكن نرغب أن نتقدم بشهادة فقر. ورغم هذه المعاناة فقد دفعوا لى المصروفات فى السنة الأولى وجزء من السنة الثانية، ثم أعفيت بعد ذلك من المصروفات بمناسبة شفاء الملك فؤاد وصدور قرار بإعفاء الخمسة الاوائل من كل سنة من سنوات الدراسة.

ومع بدايتى المتواضعة كان اهتمام أشقائى بى فى المذاكرة قد أوصلنى إلى أن أكون من الخمسة الأوائل فى نهاية السنة الثانية وظل هذا حالى فى السنتين الثالثة والرابعة وتميزت بتفوق خاص فى اللغة العربية والحساب. وربما يعود تفوقى فى اللغة العربية إلى طبيعة اهتمامات الأسرة التى تخرج العديد من أبنائها من دار العلوم. أما شغفى بالحساب فلا شك أن لمدرسى آنذاك - الأستاذ المرصفى - فضلا لا ينسى فيه.

وبشكل مـا اسـتطاعت الاسـرة أن تجـتـاز تلك المرحلة بصعوبة ودون خسـائر فادحـة. ذلك أن أخي إبراهيم قد عين في مدرسة خاصة بمرتب عشرة جنيهات. ومع أنه كان الثاني في دفـعــة دار العلوم عــام ١٩٣٠ إلا أنـه لم يـعين بمـدارس الوزارة بسـبب قـرار صـدقي باشـا وقف التـعـيينات، وكـانت شقيقتي الكبرى عائشـة تعمل مـدرسة بالمدارس الابتـدائية وساعدنا ذلك على تدبير أقسـاط المصـروفـات لي ولثـلاثة من الاشقاء. لكننا اجتزنا هذه المرحلة بتضحيات وآلام نفسية غير قليلة. ولعل تلك المرحلة هي التـي لفــتت نظرى - ولاتزال - لمسألة الفقر في الأوساط الشعبية والظلم الفادح الواقع على الملايين نتـيجـة الحـرمـان من التـعليم، والخسـارة التي تـصيب الأمة كلها نتيجة هذه الأمية.

الإبن القدوة

وينبـغي أن أذكر هنا أن سلوك الإبن الأكبر في العائلة في طريق التـعليم يكون له في العـادة أثر غـيـر قليل على الابناء الأصـغـر، فـهـو القـدوة والمثـل خـصـوصـا إذا كـان فـارق السن

كبيرا. وفى حالتنا كان لتفوق شقيقى الأكبر إبراهيم أكبر الأثر عندى طوال مراحل التعليم. فبعد سنوات قليلة من التدريس أرسل فى بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٣٤ وطول المدة التى قضاها بالخارج كان يرسل لى كل فترة خطابات على المدرسة يشجعنى. فيها على التفوق الدراسى ويطلب منى أن أبعث له بأخبارى ومشاكلى. أتذكر مثلا أننى عندما كنت فى سنة الشهادة الابتدائية بالمدرسة الحسينية أن دخل ضابط المدرسة يوما إلى فصلى ونادى اسمى، فلما وقفت ناولنى خطابا من انجلترا. وبالطبع كانت سعادتى وفخرى أمام زملائى فوق الوصف، وقد حدث نفس الشىء لأكثر من مرة عندما دخلت مدرسة فؤاد الأول الثانوية وقضيت بها السنة الأولى والسنة الثانية.

فى المرحلة الثانوية (١٩٣٥ - ١٩٤٠) قضيت بمدرسة فؤاد السنتين الأولى والثانية فلما فتحت مدرسة فاروق الأول أبوابها عام ١٩٣٧ كنت من ضمن المنقولين إليها وفيها قضيت السنوات الثلاثة الأخيرة من المرحلة الثانوية ومنها حصلت

على الشـهادة التوجيـهيـة عـام ١٩٤٠ . ولكن يحسن أن أشير
إلى حـادث مـهم فى حيـاتـى وقع لى بمدرسـة فـؤاد الأول فى
السنة الأولى من التـحـاقى بهـا . فـفى العـام الدراسى
١٩٣٦/٣٥ قـامت فى مـصـر مظاهرات عارمـة تهتف بسقوط
وزير خـارجيـة بريطانيا «صـمـويل هور» بمناسـبة تصـريح له،
ولقـد خـرجنا من المدرسـة فى مظاهرة كـبـيـرة إلى شـارع
العباسية حيث هاجمنا البوليس وضربنا بقسوة، فعدنا إلى
المدرسة وألقينا علي قوات البوليس الطوب والأخشاب. وكان
شقيقي مـحـمد فى طليعة فرقة قذف الطوب، وكنت أسـاعده،
وفى المسـاء جاءت قوات من البـوليس إلى المنزل وسـألت عنى
لأنهم وجدوا بعض كتبى على سطح المدرسة، كنت فى الثانية
عشرة وأخذت إلى قسم الوايلى حيث قضيت الليل مع ثلاثين
آخـرين فى زنزانة القسم، وفى الصـبـاح أخـذونـا إلى مـبنى
محـافظة القاهرة حيث عرضنا على النيابة التى تولت التحقيق
مـعنا ، ثم أفـرجت عني لصـغـر سنى. كـان هـذا الحـادث أول
مـواجـهـة لى - وأنا مـازلت طفـلا - لمسـألة السلطة، ولقـد بكيت

عندما جاءت أمى لزيارتى في قسم البوليس لكنى عندما عدت إلى المدرسة فى اليوم التالى حاولت أن أتظاهر بالشجاعة أمام زملائى. وبالطبع ترك هذا الحادث أثراً عميقاً فى حياتى بعد ذلك، مازلت أذكره بتفاصيله كما أنى مازلت أذكر جنازة ويصا واصف التى مرت عام ١٩٣١ فى شارع رمسيس أمام منزلنا وهتافات شباب الوفد فى تلك الجنازة المظاهرُة كقولهم «إشكى الظلم لسعد ياويصا».

تكوينى الثقافى

وفي هذه المرحلة – مرحلة المدرسة الثانوية – واظبت طوال الصيف على الذهاب إلى دار الكتب فى ميدان باب الخلق للقراءة واستعارة الكتب، فقد كانت ظروفنا المالية لا تسمح بشراء كتب للقراءة العامة وإن كنت قد استفدت من مكتبة أخى إبراهيم بالمنزل التى تركها عند ذهابه إلى بريطانيا ومنها قرأت مقامات الحريرى وديوان المتنبى وديوان الحماسة لأبى تمام وكتاب قدامة بن جعفر فى نقد النثر وغيرها، ولست أدعى أننى فهمت كل ما قرأت فى مكتبة أخى،

لكن ذلك كان مقدمة لمواظبتى على الذهاب كل يوم خلال الصيف إلى دار الكتب حيث أظل بها من العاشرة صباحاً حتي الواحدة ظهراً. وساعدنى على هذا أن خالى الأصغر كان آنذاك رئيسا لقسم الفهارس العربية بينما كان الشاعر أحمد رامى رئيسا لقسم الفهارس الأجنبية فى القاعة المقابلة، وكان موظفو قسم الفهارس العربية يرحبون بى ويساعدوننى، وفى تلك المرحلة قرأت معظم إنتاج طه حسين والعقاد وأحمد أمين والمازنى وتوفيق الحكيم وعبدالله عنان كما قرأت ديوان شوقى ومسرحياته وحافظ إبراهيم والبارودى، وكان العقاد يلفت نظرى ويستحوذ على إعجابى بصفة خاصة خصوصا كتابه «سعد زغلول سيرة وتحية» ومطالعاته فى الكتب والحياة وتأملاته فى الفسلفة وكتابه عن ابن الرومى، لكن كتب العقاد التى صدرت فى مرحلة متأخرة من حياته لم أجد فيها نفسه العميق القديم.

وفى تلك المرحلة أيضا حرصت على قراءة بعض الكتب العربية التى تتناول قضايا الفلسفة بصورة مبسطة وشغلنى

على وجه الخصوص سقراط وأفلاطون فى الفلسفة اليونانية وأفكار المعتزلة فى الفلسفة الإسلامية كما عرضها أحمد أمين. وكان لكل هذه القراءآت أثرها فى نشاطاتى بمدرسة فاروق الأول الثانوية. فمع مواظبتى على شراء مجلة «الثقافة» كنت مشتركا فى جمعية التمثيل بالمدرسة وأذكر أنى قمت بدور الكاهن «أنوبيس» فى مسرحية كليوباترا لشوقى عندما قدمناها فى آخر العام، وكنت ضمن هيئة تحرير مجلة المدرسة «الفجر» واشتركت مع آخرين فى تكوين «الجمعية الرياضية» تحت إشراف المدرس الأول للرياضيات بالمدرسة، وقد شجعنى هذا النشاط على مواصلته فى مرحلة الجامعة حيث انتخبت رئيسا للجمعية الطلابية للعلوم الرياضية والطبيعية بكلية العلوم جامعة القاهرة لعام ١٩٤٤/٤٣.

ولقد واجهت مشكلة عسيرة عام ١٩٣٩ إثر حصولى على شهادة الثقافة العامة، إذ كان علىّ أن أختار إحدى الشعب الثلاث للسنة التوجيهية (آداب، علوم، رياضيات). فقد كنت محبا للغة العربية والأدب والفلسفة، كما كنت محبا أيضا

للرياضيات ومتفوقا فيها، ومع أنه بدا لى أن الجمع بين الرياضيات والفلسفة هو أمر طبيعى لأن أفلاطون كتب على باب أكاديميته «لا يدخلها إلا المشتغلون بالهندسة» إلا أن نظام التعليم فى جامعاتنا لم يكن يسمح بذلك، فإما أن ألتحق بكلية الآداب لدراسة الفلسفة أو بكلية العلوم لدراسة الرياضيات، ولقد اكتشفت فيما بعد أن الجمع بين الدراستين يتحقق بسهولة فى الجامعات الأوربية والامريكية حيث تقوم الجامعة على الأقسام كالوحدات الاساسية وليس الكليات وحيث جدول الدراسة من المرونة بحيث يسمح بالجمع بين تخصصات تبدو متباعدة تماما فى جامعاتنا، وفى ظنى أن إحدى نقاط الضعف الاساسية فى جامعاتنا هو هذا الوضع الجامد الذى لا يسمح بالجمع بين الفلسفة والرياضيات معا أو بين الرياضيات والاقتصاد.. وهكذا.

وظللت فى هذه الحيرة طوال صيف ١٩٣٩ ثم تصادف حضور أخى إبراهيم من لندن لزيارتنا فقام بإقناعى بدخول كلية العلوم لدراسة الرياضيات وقال آنذاك إن فى مقدورى

دراسة الفلسفة أو الأدب وحدى بالقراءة والمثابرة في أشهر الصيف بينما أنا أدرس الرياضيات بكلية العلوم، لكن العكس صعب وإن لم يكن مستحيلا، وأذكر أنه قال لى كآخر حجة فى جعبته إن الفلسفة والأدب لا يطعمان أحداً !

واقتنعت ودخلت شعبة الرياضيات فى السنة التوجيهية ثم قسم الرياضيات فى كلية العلوم ولم أندم على ذلك أبدا. وفى مرحلة المراهقة والنزعات الافلاطونية بدت العلوم الرياضية - البحتة لا التطبيقية - ذات جمال خاص. وما كان يذهلنى حقا هو معنى هذه الحقائق الرياضية فى الهندسة والجبر التى بدت وكأنها مستقلة عن أى خبرة . إنه عالم المثل إذن كما كان يقول أفلاطون . واحتضنت بقوة كتاب الرياضى الانجليزى الكبير هاردى «الرياضة البحتة» كما احتضنت أفكاره المثالية كذلك.

فى مايو سنة ١٩٤٤ حصلت على الدرجة الخاصة فى الرياضيات بكلية العلوم جامعة الملك فؤاد الأول (القاهرة) وعينت فى اوائل سبتمبر من نفس العام معيدا بكلية العلوم

جامعة الملك فاروق (الاسكندرية) ومع أنه كانت هناك فرصة لتعييني بجامعة القاهرة إذا انتظرت فإنني أثرت عدم الانتظار لأسباب عديدة في مقدمتها أنني كنت حريصا على أن أعيش حياة مستقلة عن الأسرة خصوصا بعد وفاة والدتي وبداية تفكك الأسرة بزواج الكثير من أبنائها .

لكني ذهبت الى الاسكندرية وأنا أحمل في داخلي ذكريات علاقات عديدة بالقاهرة لعبت دورا مهما في تحديد مسار حياتي واهتماماتي بالاسكندرية . لقد ساعدت ظروف تربيتي وما صادفته الأسرة من مصاعب بسبب الحرص على التعليم على اهتمامي منذ وقت مبكر في شبابي بالعمل العام وعلى توفر إحساس مبكر بالالتزام قبل الآخرين خصوصا إذا كانوا من الفئات المضطهدة والمظلومة والمطحونة اجتماعيا فمثلا عندما جاءت وزارة الوفد اثر أزمة فبراير سنة ١٩٤٢ بين الملك والانجليز - وسط غارات جوية ألمانية وايطالية على القاهرة والاسكندرية - وكانت قوات روميل قد وصلت الى العلمين، تطوعت للالتحاق بمدرسة الوقاية من الغارات الجوية

بالزيتون التى كانت قد انشئت لتدريب المشرفين على أعمال الوقاية من الغارات ، وكان سنى أنذاك لا يزيد على ستة عشر عاما. وعندما خصصت الجمعية التعاونية للبترول خمسة فى المائة من أرباحها السنوية للخدمة الاجتماعية وقامت بإنشاء مبرتين للأطفال الفقراء (مبرة الاميرة فادية بالدمرداش ومبرة الأميرة فريال بالقلعة) سارعت وأنا طالب بالجامعة بالتطوع للعمل المجانى فى المبرة الأولى التى كانت قريبة من منزلنا ، وقضيت فترات الصيف لثلاثة أعوام متتالية أعمل متطوعا بتلك المبرة فى فصول محو الأمية وفى الطواف على منازل الاطفال الفقراء بالمحمدى لبحث الحالة الاجتماعية لاسرة كل طفل واقتراح معونة مالية لها. وكان يشرف على هذا العمل من قبل الجمعية التعاونية للبترول اثنان من كبار المولين فيها.. كامل عبد الرحيم وكيل الخارجية المساعد أنذاك وسفير مصر فى واشنطن بعد ذلك والمستشار عبدالمنعم رياض الذى كان من قضاة محكمة النقض .

الشباب والخدمة الاجتماعية

ولقد استطعت اقناع بعض زملائى ومنهم د. محمد عجلان- بالاشتراك فى هذا العمل التطوعى الخيرى خلال فترة الصيف، ونجحت فى ذلك مما أسعد المسئولين عن هذه المبرة ، خصوصا كامل عبد الرحيم الذى كان يرى فى هذا العمل نقطة تحول في توجهات الشباب نحو الخدمة الاجتماعية . وساعد على توثق صلتى به أنه قد بدأ يكتشف أن موظفى وزارة الشئون المنتدبين للعمل بالمبرة كانوا يختلسون بعض الاموال المخصصة للانفاق عليها، فما كان منه إلا أن كلفنى بمسئولية الانفاق على المبرة يوميا وتقديم كشف حساب له كل شهر. وعندما تخرجت من كلية العلوم وعينت معيدا بالاسكندرية أقام كامل عبد الرحيم حفلة شاى بمنزله بمصر الجديدة لتحيتى وتوديعى وأهدانى باسم المبرة أربعة كتب فى الرياضيات قيل لى إنها سوف تفيدنى فى حياتى العلمية الجديدة .

كانت تلك إذن صورة سريعة لاهتماماتى بالعمل العام -

الخدمة الاجتماعية - عندما ذهبت الى الاسكندرية ولقد أشرت الى ذكريات العلاقات الكثيرة مع زملاء لى التى حملتها معى عند ذهابى الى الاسكندرية . وهنا يجب أن أشير إلى علاقتى بالدكتور عبدالمعبود الجبيلى - وزير البحث العلمى فى السبعينيات ومدير مؤسسة الطاقة الذرية قبل ذلك - كان عبد المعبود معيدا بقسم الكيمياء تخرج قبلى بعامين وكان محل انتباه الانظار بالكلية له لتفوقه العلمى وذكائه واهتمامه بالشئون العامة ولقد حاولت اجتذابه للعمل معنا فى الخدمة الاجتماعية بمبرة الأميرة فادية فلم أجد منه الحماس الذى توقعته ، وأدى بنا هذا الى حوار طويل حاول فيه اقناعى بأن الخدمة الاجتماعية لن تؤدى إلى تغيير حقيقى فى الأحوال المتردية للمجتمع المصرى وأنها لا تزيد على أن تكون مسكنا من المسكنات مثل الاسبرين ، وأن الحل الحقيقى الجذرى هو الثورة على النظام الملكى القائم، وأن مثل هذا العمل فى حاجة الى إعداد طويل .

وشيئا فشيئا بدأت أشك فى انه مرتبط بشكل ما

بتنظيمات ماركسية غير معلنة ثم تيقنت من صحة هذه
الشكوك عندما بدأ يتحدث معى ببعض الصراحة ويعيرنى
بعض الكتب الماركسية الانجليزية مثل «ما هى الاشتراكية».
لإميل بيرنز وكتاب «الامبريالية» أعلى مراحل الرأسمالية.»
للينين، وملخص لكتاب «رأس المال » لماركس ، وكتب أخرى
ترضى اهتماماتى بالفلسفة مثل كتاب «الايديولوجيا الالمانية»،
«ضد دهرونج» لماركس وكتاب «المادية والنقد التجريبى للينين»
ولقد التهمت كل هذه الكتب وتصورت أننى فهمت وإن كنت قد
ادركت فى فترات لاحقة أن الفهم الحقيقى لا يتحقق إلا
بمعرفة السياقين الاجتماعى والثقافى اللذين ألفت فيهما هذه
الكتب. غير أن أهم كتاب اثار اهتمامى انذاك هو فى الحقيقة
كتاب انجلز «جدل الطبيعة» وهو محاولة من المؤلف – على
ضوء اكتشافات العلوم الطبيعية فى القرن التاسع عشر –
لاستخلاص قوانين الجدل من تلك الاكتشافات . وهذا الكتاب
بالذات كان محل انبهارى الشديد تلك الفترة من شبابى لأنه
بدا لى أنه يقدم تعميما مثيرا لبعض النتائج العلمية – فى

الرياضيات والفيزياء والبيولوجي - لم اسمع به من قبل، ولقد لفت نظرى على وجه الخصوص كيف أن رجلا مثل انجلز يكون على هذا المستوى من المعرفة مع أنه غير متخصص فى العلوم .

وبالطبع فعندما أنظر الآن الى هذا الكتاب أشعر أن هذا الاعجاب المبكر كان مصدره جهلي بأشياء كثيرة عن العلم. وقد يكون كتابا جيدا بمعنى تاريخى ، لكن التطورات العلمية للقرن العشرين قد تجاوزت نتائجه دون شك، وبعض نتائجه فيما يتعلق بالرياضيات التى تبدو لى اليوم ساذجة كان مصدرها معرفة انجلز السطحية بهذا العلم .

الثورة هي الحل

تلك كانت البداية إذن ... مناقشات مستمرة مع عبد المعبود الجبيلى وغيره من الاصدقاء وقراءة متصلة في كتب ماركسية كان يعيرنى إياها، وكل هذا انتهى بى الى الاقتناع بوجهة نظره بإنه لا يوجد حل لمشاكل مصر الاجتماعية غير الثورة، وأن خير ما يفعله شاب مثلى هو المشاركة فى

الاعداد لها. وهكذا ارتبطت بمنظمة «اسكرا» التى كان الجبيلى أحد قيادتها وعندما تمت الوحدة بين «اسكرا» وبين «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» عام ١٩٤٧ وتكونت منظمة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى «حدتو»، اصبحت واحدا من اعضائها.

ولقد كانت مصر - فى ظل الازمة الطاحنة التى كان يجتازها النظام الملكى الحاكم - تموج بتنظيمات غير قانونية كثيرة من بينها بالطبع تنظيم الضباط الاحرار الذى كان يقوده البكباشى جمال عبدالناصر ومع أننى لم أكن على علم بتنظيم الضباط الاحرار فقد كنت اشعر بشكل غامض أن هناك شيئا يجرى داخل الجيش بين ضابطه الصغار، وكان مصدر هذا الشعور أننى قابلت انذاك عددا من الضباط الصغار ذوى الميول الاشتراكية من بينهم الملازم أول أحمد حمروش ، وقد فهمت أنهم يؤدون بعض الخدمات التنظيمية الثورية مستفيدين من سيارات الجيش .

ولقد كانت هناك حاجة شديدة لدى منظمة «اسكرا» لتكوين مجموعة مصرية قوية من المثقفين بالاسكندرية . لقد

كان لها وجود نشيط ضمن أجانب الاسكندرية، لكن وجودها ضمن المصريين كان قريبا من الصفر. ولذا لا شك ان مجموعة المعيدين بكلية العلوم بالاسكندرية قد لعبت دورا رئيسيا فى تشكيل مصرى فى أوساط طلاب الجامعة وشبابها . وساعد على ذلك اننا نجحنا فى إنشاء ناد ثقافى بحي الازاريتا بالاسكندرية كان محل لقاء الشباب المتحمسة بالشئون العامة، وفى تأسيس رابطة للمعيدين تدافع عن مصالحهم النقابية . كما أن صدور مجلة «الجماهير» الاسبوعية بالقاهرة كان عنصرا مهما فى تجنيد العناصر المتحمسة لقضية الثورة .

وبطبيعة الحال كانت هناك خواطر من الحيرة والريبة تلم بنا نتيجة ادراكنا أن هناك تنظيما «لاسكرا» فى أوساط الاجانب لا نعرف عنه شيئا . ولكن مما خفف هذا الوضع علينا فى الاسكندرية اننا كنا نعمل بنجاح كبير فى أوساط الطلاب والعمال وكان الانفصال الكامل بين التنظيمين المصرى والاجنبى يساعد على أن ننسى هذه المسألة على الأقل فى السنوات الأولى .

وكانت تلك الفترة (١٩٤٥ - ١٩٤٨) تتميز بجيشان جماهيرى واسع وتحركات شعبية من السخط والاحتجاج ضد الاحتلال البريطاني الرابض فى القاهرة والاسكندرية وضد النظام الملكي الذى كان قد فقد شعبيته وبالتالى شرعيته تماما وبشكل عام كانت أحوال المعيشة سيئة بالنسبة للغالبية من المطحونين اجتماعيا وكانت الاوبئة تكتسح البلاد - الكوليرا مثلا - وتفتك بالالوف ، وكان الرأى العام - وخصوصا الشباب - معاديا للنظام الملكى ولفاروق خصوصا بالرغم من الجهود الحثيثة التي كان يبذلها الاخوان مصطفى وعلى أمين لتقديم صورة زائفة عن الملك واسرته امام الرأى العام .

صراع مع الانجليز

وعندما أتأمل اليوم أحداث تلك الفترة تتدافع الى ذاكرتى أشياء عديدة قد يكون من المفيد أن أشير إلى أهمها باعتبارى واحدا من شهودها او المشاركين فيها. وأولها بطبيعة الحال اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى قادت مظاهرات ٢١ فبراير

سنة ١٩٤٦ ضد الاحتلال فى ميدان التحرير وفى مواجهة ثكنات قصر النيل البريطانية (وكانت محل مبنى الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل) ، مما أدى الى سقوط العشرات من الشهداء برصاص قوات الاحتلال . لقد كان هذا العمل الجماهيرى المجيد حدثا تاريخيا بمعنى الكلمة ، وحتى اليوم مازال الطلاب فى العالم يحتفلون بهذا اليوم (٢١ فبراير) سنويا باعتباره (يوم الطلاب العالمى) .

ولأننى كنت فى الاسكندرية فلم يكن لى أدنى صلة لا بتشكيل تلك اللجنة ولا بمظاهرات ذلك اليوم المجيد، وإنما ذكرته هنا لأن هذا الحدث الجليل كان له رد فعل غاضب بالاسكندرية يوم ٥ مارس حيث وقعت المصادمات التى كنت من شهودها بين مواقع البوليس الحربى البريطانى بمحطة الرمل والمنشية وأدت الى مصرع عدد من جنود الاحتلال .

بعد هذه الاحداث بنحو شهرين أو ثلاثة فيما أذكر وقعت مصادمات أخرى بين طلاب جامعة الاسكندرية وقوات البوليس المصرى التى كانت تحاصر مبنى الجامعة فى محرم

بك حيث كانت توجد كلية العلوم وكلية الحقوق وانتهت بحادث فاجع وهو مقتل ضابط من قوات الشرطة . وجن جنون قوات الأمن فامطرت الجامعة سيلا من الرصاص واعتقلت كل من خرج من الجامعة سواء من الطلاب او هيئات التدريس ، وظل الحصار مضروبا حول الجامعة إلى منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم - محمد العشماوى - من القاهرة فى طائرة وأمر برفع الحصار وخلال فترة الحصار قمت مع مجموعة من معيدى كلية العلوم بكتابة عريضة احتجاج على الحصار وجمعنا توقيعات العديد من أعضاء هيئات التدريس الذين كانوا معنا فى الحصار بما فى ذلك توقيع عميد كلية العلوم - الدكتور حسين فوزى - وعميد كلية الحقوق الدكتور عبد المعطى خيال. واتصلت تليفونيا بأحد الاصدقاء خارج الجامعة وابلغته نص عريضة الاحتجاج طالبا منه أن يبرق بها الى صحيفة المعارضة الوفدية (صوت الأمة) . وبالفعل صدرت الجريدة فى صباح اليوم التالى وفى صفحتها الأولى نص البرقية فى برواز كبير موقعا عليه باسمى نيابة عن

الموقعين ، وكان ظهور اسمي بهذا الشكل مجرد مصادفة اذ أن موظف التلغراف أصر على وجود اسم يتحمل مسئولية هذه البرقية فكان أن اعطاه صديقي اسمى. واستشاط رئيس الوزراء - اسماعيل صدقى - غضبا وكلف وزير التعليم بالتحقيق فى الموضوع . واعتقد اننى كنت على وشك الفصل من الجامعة بسبب هذه العريضة لولا أن الوزير اكتشف أن عميدى العلوم والحقوق من الموقعين فضلا عن عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس ، ولم يكن من السهل إذن تحميلى المسئولية.

محاولات فاشلة لاعتقالى !

ولابد أن تلك الواقعة كانت ذات صلة بوضع اسمى فى كشوف حملة اعتقالات اسماعيل صدقى التى نفذت فجر ١١ يوليو سنة ١٩٤٦ واعتقل فيها العديدون من بينهم محمد زكى عبد القادر والدكتور محمد مندور وعبد الرحمن الشرقاوى وهنرى كورييل وآخرون كثيرون ، والتى قصد بها فى حقيقة الأمر تصفية النشاط الجماهيرى البارز الذى كان اليسار

المصرى - بالتعاون مع الطليعة الوفدية - قد نجح فى قيادته. ولم يتمكن بوليس الاسكندرية من اعتقالى لأنهم ذهبوا الى عنوان كنت قد تركته منذ أسابيع قليلة . وشاء الحظ العاثر للضابط المكلف بالعملية أن يفتش منزل أحد نواب حزب السعديين بحثا عنى ، ورفض أن يعترف أن لهذا المنزل حصانة برلمانية . وفى اليوم التالى تقدم النائب باستجواب فى البرلمان، وكانت العلاقة بين اسماعيل صدقى والسعديين قد بدأت تتوتر لأسباب أخرى فحمل النواب حملة شديدة علي الوزارة واضطر رئيس الوزراء الى أن يلقى بيانا فى البرلمان يشرح فيه ملابسات خطأ الضابط الذى كان مكلفا باعتقالى ضمن الحملة، وقدم اسماعيل صدقى اعتذارا للنائب عما حدث وأعلن أن الضابط قد نقل الى الصعيد عقابا له.

قرأت كل هذا وأنا فى مخبئى عند أحد الاصدقاء بالاسكندرية وقد تردد اسمى كثيرا فى كل هذه المساجلات البرلمانية وفى أوائل سبتمبر كانت النيابة قد أفرجت عن جميع من اعتقلوا فى حملة يوليو وحفظت التحقيق . فعدت الى

الجامعة وعند خروجي منها ظهرا فى أحد الأيام وجدت ضابطا فى انتظارى حيث قضيت فى قسم محرم بك ليلة شديدة الطرافة، وفى الصباح توجهت الى النيابة بالمنشية ، فما كان من وكيل النيابة إلا أن سألنى بضعة اسئلة شكلية وتولى هو الاجابة عليها ثم رجانى أن اذهب الى الجامعة فور خروجي من مكتبه . ولم أفهم السبب فى هذا الطلب إلا عندما علمت عند وصولى الى الكلية باضراب الطلاب احتجاجا على اعتقالى .

أما الواقعة الثالثة الجديرة بالاشارة هنا فتتعلق بأحداث ٥ . ٦ ابريل سنة ١٩٤٨ المعروفة باسم «اضراب البوليس» لقد كان لضباط البوليس وجنوده مطالب تتعلق بزيادة الرواتب وتحسين ظروف العمل. وقد فشلوا فى اقناع رئيس الوزراء النقراشي الذى كان عنيدا الى حد الحماقة ، بعدالة تلك المطالب . وعندئذ دعوا الى اضراب عام لهم فى يوم ٥ ابريل ، وكان لهذه الدعوة الى الاضراب امتدادات جماهيرية واسعة فى الاسكندرية على وجه الخصوص . فقد تزامن هذا

الموضوع الخطير – اضراب البوليس – مع مطالب نقابية خاصة بالاجور لعمال الغزل والنسيج وغيرهم. كما تزامن مع موضوع طلابى اخر عرف انذاك باسم «قضية سعد فريد» .

كان سعد فريد طالبا بكلية العلوم قبض عليه فى حى كرموز وقيل أنه كان يوزع منشورا يساريا عند أبواب شركة الغزل الاهلية. وفى اجراءات حكومية عاجلة ومقصودة للتخويف حوكم سعد فريد وصدر عليه حكم بالسجن ستة أشهر وقد أثار هذا الحكم ثائرة طلاب الجامعة لأنه كان اول حكم يصدر ضد طالب. كل هذا كان قد جرى قبل ٥ ابريل بشهر على الاقل. لكن غياب البوليس فى هذا اليوم المشهود كان فرصة مواتية لمظاهرات عارمة التحم فيها العمال مع الطلاب مع جنود البوليس فى مظاهرات ملأت ميدان المنشية وكان جنود البوليس يرفعون سناكى بنادقهم وعلي قمتها رغيف عيش اشارة الى مطالبهم. واتجهت بعض هذه المظاهرات الى سجن الحضرة لاطلاق سراح سعد فريد . ونزلت قوات الجيش بالدبابات والعربات المصفحة الى الميادين

وأطلقت النيران وسقط العديد من القتلى والجرحى. وفى هذا اليوم - او ربما اليوم التالى ٦ ابريل - وزعت منشورات باسم (حدتو) كان عنوانها «تسقط الملكية وتحيا الجمهورية» وكانت تلك أول مرة توزع فيها مثل هذه المنشورات الثورية بين الجماهير. ولقد أشرت منذ سنوات فى مكان أخر الى هذه الواقعة وذكرت أن كاتب المنشور كان فى الحقيقة الشاعر كمال عبد الحليم الذى كان انذاك المسئول السياسى فى (حدتو) لمنطقة الاسكندرية ، وأن كاتب هذه السطور هو الذى قام بطبع المنشور فى أحد مطابع محرم بك وتنظيم توزيعه . وكنت انذاك مسئول الدعاية والتثقيف فى نفس لجنة المنطقة .

اعتقالات بالجملة

لقد كان هذا المد الثورى بالاسكندرية والقاهرة هو السبب الحقيقى لقيام حكومة النقراشى باعلان الاحكام العرفية فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ رغم أنها أخذت من موضوع فلسطين تكئة لهذا الاعلان ، ولعل الدليل الواضح علي ذلك انها لجأت الى اعتقال كل القوى السياسية المناوئة للنظام بادئة باليسار

ثم قوى الطليعة الوفدية ثم الاخوان المسلمين بعد ذلك بشهور.

وكنت بالطبع واحدا من المعتقلين الذين اودعوا فى معتقل (أبو قير) بالاسكندرية ثم نقلت بعد ذلك بشهور مع أخرين الى المعتقل المخصص للقاهرة (معتقل الهاكستيب) ثم نقلت مع اخرين الى معتقل (الطور) على ساحل البحر الاحمر بالقرب من دير سانت كاترين ، وقد تجمع فى هذا المكان الذى كان أصلا مخصصا للحجر الصحى الالاف من اليسار والاخوان المسلمين .

وكان الهدف هو عزلهم تماما عن القاهرة والعالم الخارجى، وكانت وسيلة الاتصال الوحيدة بين المعتقل وبين السويس هى الباخرة «عايدة» التى كانت تأتى لنا بالمؤن والمأكولات والخطابات كل أسبوعين .

وقد قضيت فى تلك المعتقلات نحو عام ونصف مرضت فى أخرها ونقلت إلى مستشفى الدمرداش وبقيت فيه من سبتمبر سنة ١٩٤٩ حتى أفرج عنى فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عندما

أجريت الانتخابات العامة وعادت الحكومة الوفدية فأفرجت عن جميع المعتقلين .

ومن الضرورى الاشارة الى أن قصة الاعتقالات هذه قد تزامنت مع الانقسامات العديدة التى وقعت فى صفوف اليسار وأدت الى تضعضع نفوذه . صحيح ان الخلافات وبداية الانقسامات كانت قد بدأت قبل اعلان الاحكام العرفية والاعتقالات، وذلك بانقسام شهدى عطية الشافعى الذى عرف انذاك بـ «تكتل سليمان»، ولكن قضية فلسطين والموقف من مشروع التقسيم وبداية اعتقالات ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ .. كل ذلك خلق مناخا مواتيا لانقسامات اوسع بين مؤيدى مشروع التقسيم ومعارضيه فى صفوف اليسار، وكان من الطبيعى أن يثور فى هذا المناخ وضع الاجانب واليهود داخل قيادة (حدتو) وخصوصا هنرى كورييل .

ولقد حاولنا فى الاسكندرية تجنب انقسامات القاهرة ونجحنا فى ذلك الى حد كبير فى أول الأمر ، لكن اشتداد حملة الاعتقالات ثم ذهابنا الى معتقل الهاكستيب حيث

الانقسامات كانت مكرسة بالفعل أدى بطبيعة الحال الى أن أصبحت الاسكندرية جزءا من هذه الانقسامات التى صارت أمرا واقعا . ولقد حلت الحكومة موضوع الأجانب فى مصر ولم يعد لهذه المشكلة وجود داخل مصر وإن كان بعض هؤلاء المتمصرين من اليهود قد حاولوا انشاء تنظيم لهم فى باريس باسم (مجموعة روما) . ولا شك أن الانقسامات قد اضعفت نفوذ اليسار الى حد كبير وأصبح من الواضح لكل ذى عينين انه إذا قدر لليسار أن يستعيد حيويته ونفوذه فى يوم من الايام فإن ذلك سوف يستغرق زمنا طويلا .

عندما افرج عنى فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عدت الى جامعة الاسكندرية كما عاد زملائى الاخرون من المعيدين ، لكننا وجدنا تقاعسا من الكلية فى تسليمنا العمل من جديد. وعدت إلى القاهرة ساعيا لمقابلة وزير التعليم الجديد بالوزارة الوفدية - الدكتور طه حسين - لشرح الاوضاع له ولقد نجحت فى ذلك بفضل سكرتيره الخاص (حسين عزت) ومدير مكتبه ((سعيد العريان) .ولقد كان موقف الوزير رائعا على

الرغم من أنه لم يكن يعرفنى اصلا .. أنصت باهتمام كعادته لكل ما قلته ثم اشار الى حسين عزت أن يطلب له مدير جامعة الاسكندرية تليفونيا. وبقيت فى غرفة حسين عزت الى ان استدعانى الوزير مرة أخرى لمقابلته فإذا به يطلب منى أن أذهب إلى الاسكندرية لتسلم عملى ، وقد علمت بعد ذلك عندما عدت الى الاسكندرية انه شدد على مدير الجامعة بضرورة عودتنا الى عملنا .

بداية مرحلة جديدة

ولقد كانت عودتى الى العمل بكلية العلوم بداية لمرحلة جديدة انتهيت فيها – بعد مراجعة فكرية طويلة – إلى ضرورة اتخاذ موقف جديد من النشاط السياسى نتيجة ما استجد من ظروف . لقد تمزقت قوى اليسار الى كيانات صغيرة بلا وزن حقيقي، واتضح لى سذاجة تفكيرنا السياسى الذى كان يتوهم أن ثورة بقيادة قوى اليسار هى على الأبواب. ولقد كنا محقين فى الوصول الى نتيجة أن نظام فاروق قد أصبح كالثمرة العفنة التى على وشك السقوط ، لكن الخطأ كان فى

تصور ان اليسار كان قادرا على التصدى لقيادة التحول. ولقد ثبت تاريخيا أن ضباط الجيش بتوجههم الوطنى العام (وإن ضموا عناصر تنتمى الى اليمين والوسط واليسار) هم الذين كانوا مؤهلين لقيادة معركة التحول فى معركة سرعان ما تم التخلص فيها من عنصر اليسار الموجود فى القيادة (خالد محيى الدين) .

وكل هذا التحليل قد انتهى بى إلى ضرورة السفر إلى الخارج للحصول على الدكتوراه ما دمت سأبقى فى الجامعة. وطلبت من صديق لى كان قد عاد من بريطانيا بعد حصوله علي الدكتوراه ان يحجز لى مكانا فى إحدى كليات جامعة لندن، وعندما تم هذا بدأت استعد علميا للسفر ، إذ مشاكل العمل السياسى كانت قد أبعدتنى عن اهتماماتى العلمية، وهكذا سافرت فى أوائل سبتمبر سنة ١٩٥٠ الى لندن .

ومن المفارقات الغريبة التى وقعت لى قبل سفرى بأقل من شهرين أن وزير الداخلية فى وزارة الوفد - فؤاد سراج الدين - استدعانى الى مقابلة فى مكتبه بلاظوغلى فى يوليو سنة

١٩٥٠ كما استدعى زميلى د. محمد عجلان . وقد أجرى معنا حوارا سياسيا طويلا حول أفكارنا وبرنامجنا السياسى تحدثنا معه بصراحة حول قضايا الاصلاح الزراعى وبرنامج النهوض بالريف وحول قضايا التأميمات (خصوصا شركة قناة السويس) وحقوق الحركة العمالية النقابية.. الخ .

وكان رأى الوزير أن الكثير مما ندعو له موجود فى برنامج الوفد ولم نوافق بالطبع علي هذا الرأى . وقد فهمت السبب الاساسى لدعوته عندما قال ان تقارير القسم المخصوص تقول إننا مستمرون فى نشاطنا السياسى غير القانوني ، ولم يكن هذا صحيحا بالمرة فقد كنت استعد للسفر إلى لندن ومشغولا باعادة تأهيل نفسى من الناحية العلمية .

ولقد أوضحت هذا للوزير الذى فوجىء بنبأ استعدادى للسفر إلى لندن . ولقد ذكرته فى الرد على تقارير القسم المخصوص الزائفة بما كان يهتم هو به عام ١٩٤٩ من نفس هذه الاجهزة بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال رئيس الوزراء انذاك النقراشى – ولم يملك الوزير إلا أن يبتسم ويسكت عند

سماعه كلامى. ومن طرائف هذا اللقاء أن ضابط القسم المخصوص الذى حضر هذا اللقاء واستمع إلى هجومى على تقارير القسم المخصوص هو ممدوح سالم الذى صار رئيسا للوزراء بعد ذلك فى عهد السادات .

قضيت في بريطانيا عامين بالتمام والكمال من سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى سبتمبر سنة ١٩٥٢ لاعداد رسالة الدكتوراه فى الاحصاء الرياضى بإحدى كليات جامعة لندن. ومع أنى قضيت فيما بعد نحو خمس سنوات أخرى فى بريطانيا كمدرس بالجامعة (طوال سنتى ١٩٥٥ - ١٩٥٩) وكأستاذ زائر لاحدى جامعتها (ثلاث سنوات خلال السبعينات) إلا أن فترة الدكتوراه كانت نقطة تحول شديدة الأهمية فى حياتى العلمية وتكوينى الثقافى..

وفى العادة يستغرق الإعداد للدكتوراه فى الفروع المعملية للعلوم الطبيعية حوالى اربع سنوات أو أكثر ، لكن فى الرياضيات بالذات يصبح من الممكن - ولو انه نادر - ان ينتهى الطالب من اعداد رسالته خلال عامين ميلاديين إن

ساعده الحظ فى موضوع البحث وارهق نفسه بالعمل المتواصل . وهو ما حدث معى اذ رغم سوء حظى فى مناسبات عديدة من حياتى فإن الموضوع الذى اقترح علىّ بحثه كان أصلا قد بدأ على يد المهندسين المدنيين . وقد وصل الى استاذى من خلال استاذ الهندسة المدنية بنفس الكلية التى التحقت بها الكلية «الامبراطورية» . والموضوع يتلخص فى أن مهندسا استشاريا بريطانيا مرموقا - هيرست - عمل فى مصر سنين طويلة وارتبط اسمه بدراساته المنشورة عن نهر النيل كان قد نشر فى مجلة الهندسة المدنية الامريكية بحثا مهما يحاول فيه بناء نظرية للتخزين القرنى (مائة سنة) للمياه فى بحيرة فكتوريا . وقد صادف هذا البحث العديد من المسائل النظرية العامة فى علم الاحتمالات والاحصاء وكعادة المهندسين فقد حاول هيرست أن يعطى اجابات تقريبية على مسائل من نوع : كم يكون حجم الخزان اذا أريد له ألا ينضب خلال المائة سنة وعلى اساس تصرف مائى متوسط معين كل عام ؟ ولقد كان المطلوب منى هو معالجة

منهجية لهذه القضايا واعطاء اجابات دقيقة غير تقريبية عليها، وهذا ما نجحت فيه في نهاية الامر وأدى بي الى علاقة خصبة مع هيرست بعد ذلك .

ولقد اقتضى هذا العمل المتواصل صباحا في حضور محاضرات لطلبة الدراسات العليا ولطلبة ما قبل البكالوريوس. وبعد الظهر في الذهاب الى مكتبه الكلية ومكتبة المتحف العلمي البريطاني . وفي المساء في مواصلة القراءة بالمنزل في كثير من الاحيان . ولا شك أنها كانت مرحلة اساسية في تكويني العلمي.

تكويني الثقافي

غير أن هذه المرحلة لم تكن اساسية في تكويني الرياضي فحسب وانما كانت ايضا شديدة الاهمية في تكويني الثقافي العام اذ انفتحت فيها على الجوانب الايجابية العظيمة في الثقافة الغربية عموما وفي الثقافة الانجليزية خصوصا. ومن حسن الحظ ان الكلية التي التحقت بها كانت في أحد احياء لندن المشهورة «سوث كينز نجتون» وهو حي المتاحف

الكبيرة... متحف فيكتوريا وألبرت، المتحف العلمى البريطانى... متحف التاريخ الطبيعى .. الخ، كما أن به قاعة ألبرت الشهيرة والتي كانت تعقد بها الحفلات الموسيقية الكبيرة والاجتماعات الجماهيرية الضخمة ، وكل هذا كان يبعد عن غرفتي بالكلية خطوات. ولا شك أننى مدين لقاعة ألبرت بتذوقي للموسيقى الكلاسيكية خصوصا بيتهوفن وموتسارت وهما أحب موسيقيين الى قلبى ، كما حرصت فى عطلات نهاية الاسبوع على التردد على المسرح البريطانى والاستمتاع بروائعه. ولم أفلح مع ذلك فى تذوق الاوبرا والاهتمام بها .

كما كانت إقامتى فى بريطانيا فرصة للقراءة فى الادب الانجليزى وحضور ندوات ثقافية واجتماعية وسياسية وزيارة العديد من المدن البريطانية . ورغم هذا البرنامج الحاشد لم أفقد اهتمامى بتتبع شئون مصر السياسية ومشاكلها وكتبت بين الحين والآخر مقالات لصحيفة ديلي وركر البريطانية باسم (ص . الايوبى)، كما حرصت علي التردد على النادى المصرى

يومى السبت والاحد للالتقاء بزملائى الدارسين لمناقشة الاوضاع فى مصر. وقد استطعنا تشكيل اللجنة الوطنية لمتابعة الموقف فى مصر والاستجابة له بالعمل الطلابى الصحيح، وأذكر من أعضاء هذه اللجنة د. حكمت ابو زيد وزيرة الشئون الاجتماعية خلال المرحلة الناصرية ود. فائق فريد نائب وزير الكهرباء الاسبق .

وقد قامت هذه اللجنة بأعمال مهمة عديدة ومنها أنها كانت تصدر نشرة غير دورية عما يجرى فى مصر سياسيا ونقابيا عرفت باسم «السلام والاستقلال » وكنا نرسلها الى النقابات والهيئات البريطانية بالبريد، والحقيقة أن هذه النشرة كان يصدررها أصلا د. عبدالمعبود الجبيلى فى باريس وكان يرسلها لى فنتولى ترجمتها الى الانجليزية وطبع اعداد كافية منها وارسالها الى النقابات والهيئات .

ولقد نجحت اللجنة الوطنية فى عقد مؤتمرات مختلفة للطلاب المصريين فى بريطانيا ، بالنادى المصرى فى المناسبات السياسية والاجتماعية المختلفة ، وقد تميزت تلك

الفترة فى مصر بأحداث سياسية واجتماعية مهمة ومتدافعة مما ساعد على اهتمام الطلاب المصريين بحضور تلك المؤتمرات فى لندن .. غير أن أهم عمل اضطلعت به تلك اللجنة ونجحت فيه المؤتمر الضخم الذى عقد بالنادى المصرى إثر هجوم القوات البريطانية على محافظة الاسماعيلية وحريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ . وكانت نفوس الطلاب تغلى سخطا على الاوضاع فى مصر التى أدت الى تلك الكارثة الرهيبة، وفى هذا الاجتماع تحدثت طويلا عن المؤامرة التى دبرها الاحتلال مع الرجعية المصرية لاسقاط وزارة الوفد وحرق القاهرة، كما تحدث غيرى من الطلاب فى هجوم صريح على النظام الملكى فى مصر محملين فاروق وقوات الاحتلال المسئولية الاولى فيما حدث، بل لقد وقف احد الدارسين (د. عبدالحميد امين) وطالب بضرورة ان يتنازل الملك فاروق عن العرش كبداية لحل الازمة المستحكمة ..ولقد صفق الطلاب طويلا لهذا الاقتراح ولكنه تسبب فى احراج شديد لمدير مكتب البعثات - د. عبدالعزيز عتيق - الذى كان

زوج شقيقة عبد الحميد أمين وهو نجل كاتبنا الكبير أحمد امين .

ولم يمض على هذا المؤتمر سوى شهور قليلة حتى تحول الضباط الاحرار للاستيلاء على السلطة فيما عرف باسم ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، وفي هذه المناسبة دعونا لمؤتمر حاشد من جميع مدن بريطانيا لمناقسة الوضع الجديد. وكانت المعلومات المتاحة شحيحة عن طبيعة وتوجهات هذه الحركة الجديدة. إلا أن الحدث الذى دفعنا الي تأييد حركة الجيش بشكل حاسم هو طرد فاروق من مصر وتنازله عن العرش ، فقد كان هذا طلبا من مطالبنا في مؤتمر أواخر يناير سنة ١٩٥٢ وارسلت باسم اللجنة والمؤتمر برقية تأييد للثورة اذيعت من راديو القاهرة، وازدادت قناعتي بصحة هذا الموقف عندما أعلنت الجمهورية لاحقا .

قرار بالفصل من الجامعة

بعد وقوع الثورة بشهرين قدمت رسالة الدكتوراه ونجحت فى الحصول علي الدرجة وعدت الى مصر متفائلا ببداية

مرحلة جديدة . ولم أذهب الى جامعة الاسكندرية كما كان مفروضا وإنما صدر قرار وزارى بنقلى الى كلية العلوم جامعة القاهرة لأحل محل د. طلبة عويضة الذى كان قد اعير الى العراق وبقيت فى قسم الرياضة البحتة بالكلية المدرس الوحيد بين عدد من الاساتذة المساعدين واستاذا واحدا اتحمل عبء تدريس ١٤ ساعة اسبوعيا حتى وقعت أزمة مارس سنة ١٩٥٤ فانحزت الى دعوة الديمقراطية مع خالد محيى الدين ومحمد نجيب . وكنت من الموقعين على العريضة التى طالبت بعودة الجيش الى ثكناته . وكان إن صدر قرار من مجلس قيادة الثورة فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥٤ بفصلى مع ٤٢ عضوا من هيئات التدريس بالجامعات معظمهم من الذين اتخذوا هذا الموقف. وكان من بين هؤلاء د. عبدالمنعم الشرقاوى . ود لويس عوض، ومحمود أمين العالم ود . فوزى منصور (من جامعة الاسكندرية) وآخرون كثيرون .

ولقد كان صدور هذا القرار صدمة كبيرة لى فقد كنت قد قضيت عامين فى جامعة القاهرة أدرس وأبحث واكتب مقالات

فى الادب والثقافة فى جريدة المصرى ومجلة روز اليوسف .

وفى مايو سنة ١٩٥٤ طلبت اجازة فى الصيف للسفر الى بريطانيا لاستكمال بعض الابحاث العلمية هناك، وقد وافقت جامعة القاهرة وسافرت فعلا وقضيت الصيف كله فى لندن منقطعا لابحاثى وعدت الى القاهرة بالفعل يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٤ ودون أن أعرف أن قرارا من مجلس قيادة الثورة قد صدر يوم ٢٤ سبتمبر بفصلى من جامعة القاهرة. ومن المفارقات الغريبة ان استاذى فى جامعة لندن الذى أشرف علي رسالة الدكتوراه استدعانى لمقابلته قبل ترك لندن بأيام وفاجأنى انه قد طلب منه أن يرشح أحد تلاميذه لشغل وظيفة محاضر فى الاحصاء باحدى كليات الجامعة وانه قد خطر فى ذهنه أن يرشحنى لشغل هذه الوظيفة. وقد اعتذرت فورا وقلت له إن جامعة القاهرة أولى بجهودى . وبعد هذا اللقاء بأيام عدت فعلا الى القاهرة لاجد قرار مجلس قيادة الثورة فى القاهرة بلا عمل وبالطبع أبرقت الى استاذى أخبره اننى قبلت عرضه وأن خطابا فى الطريق يشرح لماذا غيرت رأيى .

ولست أنسى فضل الذين حاولوا مساعدتى فى هذه الظروف ومنهم د. عبدالمنعم الشافعى الذى كان آنذاك وكيلا لوزارة الشئون . والذى رشحنى للعمل فى معهد الاحصاء الدولى (فرع بيروت) وبالفعل سافرت الى بيروت فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ وقضيت هناك نحو أربعة شهور ادرس فيها لطلاب معهد الاحصاء الدولى. ومن بيروت سافرت الى بريطانيا في فبراير سنة ١٩٥٥ وبقيت فيها نحو عامين محاضرا بكلية تشلسى للعلوم والتكنولوجيا حتى تأميم قناة السويس فى يوليو سنة ١٩٥٦ وعندئذ قررت أن أقدم استقالتى من عملى لاتفرغ للدفاع عن قرار التأمين أمام الرأى العام الريطانى . والغريب أن إحسان عبد القدوس - وكنت على صلة به وأبعث له مقالاتى فينشرها فى روز اليوسف - كان قد كتب فى فبرير سنة ١٩٥٥ مقالا طويلا على صفحتين فى مجلته عنوانه «الرجل الذى سرقه الانجليز» يدعو فيه الى إعادتى الى جامعة القاهرة ويطالب الثورة بتصحيح هذا الخطأ ، وكان مقالا شجاعا فى تلك الظروف .

ثم جاءت مسألة التأميم واستقالتى من عملى فى لندن فوضعت القيادة فى مصر فى موقف حرج والغريب أن الملحق العسكرى فى السفارة المصرية بلندن طلب منى الا اشترك فى العمل الجماهيرى فى بريطانيا المدافع عن التأميم والمناهض للحرب لأنه كان يتصور اننى سأقف فى هذا العمل معارضا لعبد الناصر باعتبارى مفصولا من الجامعة لكنى رفضت طلبه بالطبع واتخذت الموقف الذى أملاه علىّ ضميرى الوطنى وهو الدفاع عن التأميم وعن عبد الناصر فى موقفه من الجزائر وباندونج .

ولقد تعاونت فى هذا النشاط مع حركة تحرير المستعمرات، التى كان الجناح اليسارى من نواب حزب العمال هو القيادة الحقيقية لها (تونى بن وآخرون) واشتركت بهذه الصفة فى اجتماعات جماهيرية حاشدة فى المدن البريطانية المختلفة، انتهت الى اجتماع ميدان «الطرف الأغر» بعد بدء العدوان الثلاثى على مصر بأيام ،

وبعـد هذا الاجـتـمـاع بأيام عـدت الى القـاهــرة عن طريق الخرطوم التى بقيت فيها حتى حضور أول طائرة من القاهرة فوصلت القاهرة فى أوائل ديسمـبر لأجد عـرضا من خـالد محيى الدين بالعمل معــه فى صحيفة المساء. وقبلت العرض وتحولت من أستاذ جامعى إلى صحفى منقطع للعمل فى بلاط صاحبـة الجلالـة.

مسيرة حياتى الجامعية

على غير ما اعتاد أساتذة الجامعات أتيح لى أن أعمل فى الجامعات الثلاث الأساسية فى مصر : جامعة القاهرة ، جامعة عين شمس ، وجامعة الاسكندرية .

لقد تخرجت فى كلية العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٤٤ ، وعندما سارعت جامعة الاسكندرية بتعييني معيدا فى قسم الرياضيات كلية العلوم رحبت بهذا التعيين على الفور ، وأثرت البقاء فى الاسكندرية ، رغم أنه عرض عليَّ بعد ذلك بشهور فكرة تعييني بعلوم القاهرة لكنني اعتذرت .

كنت مبهورا بمدينة الاسكندرية وجوها ، بعد أن زرتها لأول مرة فى صيف ١٩٤٣ مع بعض أقاربى ومكثنا فيها شهرا . وكنت أيضا حريصا على أن أعيش مستقلا عن عائلتى فى القاهرة ، معتمدا على نفسى فى تدبير شئون حياتى بدلا من الاعتماد على شقيقاتى اللائى أخذن مسئولية والدتى فى المنزل بعد وفاتها عام ١٩٤٠ .

والأهم من ذلك أننى كنت قد بدأت فى العام الأخير من دراستى بكلية العلوم بالقاهرة أتصل بعدد من المعيدين بالكلية ، وعلى رأسهم عبد المعبود الجبيلى وشكرى سالم وعبد الرحمن الناصر ، الذين بدأوا فى تشكيل حلقات ماركسية لمناقشة الأوضاع فى مصر ، وعلى وجه الخصوص الاحتلال البريطانى ، والإصلاح الزراعى ، نقابات العمال وتحسين أوضاعهم ، وفى النهاية ضرورة الإعداد للثورة على الأوضاع الراهنة .

وازدادت قناعتى بهذه الافكار وقرأت عددا من الكتب الماركسية فى الاقتصاد والفلسفة والسياسة ، وبدأت أنتظم فى حضور ندوات دار الأبحاث بشارع نوبار . وعندما عينت معيدا . بالاسكندرية وجدتها فرصة سانحة لبدء حركة اشتراكية مصرية جديدة فى أوساط الطلاب الجامعيين والمعيدين . وأكد لى أصدقائى من المعيدين أهمية بقائى بالاسكندرية لفتح جبهة نشاط سياسى مصرى فيها ، وقد رشحت فى سنوات ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ لبعثات أجنبية ، لكنى لم

أذهب لأننى كنت أنذاك منهمكاً فى العمل السياسى بالاسكندرية وكنت مقتنعا أن الثورة على الأبواب وأن المساهمة فيها أهم من الحصول على درجات علمية مثل الماجستير والدكتوراة .

محاولة اعتقال

والحقيقة أننى كنت منهمكا فى الاسكندرية فى العمل السياسى فى الفترة ١٩٤٤ - ١٩٥٠ ، وتعرضت لمحاولة اعتقال فى يوليو سنة ١٩٤٦ ضمن حملة صدقى المشهورة ، لكننى أفلت من الاعتقال وبقيت مختفيا بالاسكندرية حتى أفرج عن جميع المعتقلين بعد شهرين عندما عدت إلى الجامعة.

وفى مايو سنة ١٩٤٨ أصدر النقراشى أمرا باعتقالى ضمن آخرين عديدين ، ومع أننى نجحت مرة أخرى فى الهرب إلا أننى وقعت فى المصيدة عندما ذهبت لحضور أحد الاجتمعات فى شقة بسيدى بشر ، وكان المقيمون فيها قد اعتقلوا قبلى . وبقيت فى معتقل أبو قير عدة شهور ثم نقلت مع آخرين إلى معتقل الهايكستب (فى طريق الاسماعيلية) ثم

نقلت مع آخرين إلى معتقل الطور حيث بقينا فيه حتى الانتصار الانتخابى للوفد فى يناير سنة ١٩٥٠ فأفرجت عنا حكومته الجديدة .

ولست معنيا فى هذا المقال بالحديث عن نشاطى السياسى بالاسكندرية فربما أعود إلى ذلك فى مقال آخر . لقد أردت فقط فى هذا المقال الإشارة إلى أننى عدت إلى كلية العلوم بالاسكندرية فور الإفراج عنى فى أول عام ١٩٥٠ ، كما عاد الكثير من المعيدين الذين سبق اعتقالهم مثلى ، أو الذين كانوا : أفلحوا فى الهرب . وأظن أن عددنا كان ثمانية أو تسعة . لكننا أحسسنا أن ثمة تقاعسا بالكلية عن تسليمنا العمل من جديد . ويبدو أن الفكرة التى سيطرت على قيادة الجامعة آنذاك هى نقلنا من الجامعة إلى التعليم العام ، وأظن أن هذه الفكرة كانت تدور فى ذهن مدير الجامعة آنذاك صادق جوهر الذى كان معروفا عنه صلته الوثيقة بالسراى الملكية .

لكن طه حسين كان وزيرا للتعليم ، وقد نجحت فى مقابلته وشرحت له الوضع ، كما نجح آخرون فى عرض قضيتنا

عليه، فجاء موقفه حاسما بضرورة عودتنا إلى كلياتنا ، وهذا ما تم فى نهاية المطاف .

بعد الإفراج عنى عام ١٩٥٠ كان تفكيرى قد تغير عما كنت اعتقدته عند تخرجي بالتفاؤل المبالغ فيه بقرب قيام الثورة الاشتراكية ، قد انتهى بطبيعة الحال . لقد ظلت ثقتى فى أفكارى قائمة . كما هى ، لكننى أدركت لأول مرة أن الزمن سيطول قبل حدوث مثل هذا التحول الذى كنت أحلم به، وعلى هذا فلا بأس من بقائى فى الجامعة ومن الحصول على شهادة الدكتوراه ، وهو شرط البقاء فى الجامعة .

فى لندن

وهكذا سافرت إلى انجلترا فى سبتمبر سنة ١٩٥٠ والتحقت بالكلية الامبراطورية بجامعة لندن ، ووفقت فى الحصول على الدكتوراه فى الإحصاء الرياضى فى سبتمبر ١٩٥٢ وعدت إلى مصر بعد قيام ثورة يوليو بشهرين وبالطبع لم أنقطع عن النشاط السياسى وأنا فى لندن .، فأتذكر أننى أنشأت مع آخرين اللجنة الوطنية المصرية وكان من أعضائها

الدكتور فايق فريد والدكتورة حكمت أبو زيد . وقد عقدنا اجتماعا ضخما فى النادى المصرى بلندن حضره مئات من الطلاب المصريين بعد حدوث حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢ ، وأعلنا احتجاجنا على الأوضاع فى مصر ضد الأحكام العرفية ، وضد عزل حكومة الوفد ، وأتذكر أن الدكتور عبد الحميد أمين (نجل الكاتب الكبير أحمد أمين) وقف فى الاجتماع مطالبا بتنازل الملك فاروق عن العرش .

كما أيدت هذه اللجنة (بعد دعوة أخرى للطلاب فى يوليو سنة ١٩٥٢) ثورة الضباط خصوصا بعد قيامهم بإسقاط فاروق والإعلان عن نيتهم فى الإصلاح الزراعى .

عدت إذن فى سبتمبر سنة ١٩٥٢ إلى مصر ، وذهبت إلى الاسكندرية لاستلام العمل ، لكن جامعة الاسكندرية لم يكن يبدأ العام الدراسى فيها إلا فى أواخر أكتوبر فى تلك الأيام . وهكذا أقمت فى القاهرة حتى تبدأ الدراسة فى الاسكندرية عندما حدث لى تحول مفاجىء .

اتصل بى الدكتور طلبة عويضة ، وكان المدرس الوحيد فى قسم الرياضة البحتة بكلية العلوم جامعة القاهرة ، وأبلغنى أن رئيس القسم - الدكتور محمد مرسى أحمد (وزير التعليم العالى بعد ذلك أيام السادات) يريد أن يرانى . وكنت أرتبط معه تاريخيا برباط الود والتقدير منذ أن كنت رئيسا للجمعية الرياضية الطبيعية وأنا طالب فى سنة البكالوريوس . وهكذا ذهبت إلى مقابلته بالكلية بالجيزة فإذا به يفاجئنى بعرض تعيينى فى قسم الرياضة البحتة بعلوم القاهرة فى مكان طلبة عويضة الذى كان سوف يعار لجامعة بغداد . وعندما أبديت له شكى فى أن توافق جامعة الاسكندرية على ذلك ، قال لى : المهم أن توافق أنت واترك الباقى لى .

وبالفعل وافقت وأنا لا أصدق أن هذا سوف يتم ، لكن قرار من وزير التعليم بنقلى من جامعة الاسكندرية إلى جامعة القاهرة صدر بعد هذا اللقاء بأربعة أيام ، رغم استياء جامعة الاسكندرية ومحاولتها تعطيل هذا النقل بعض الوقت .

أزمة مارس

استلمت عملي إذن مدرسا في قسم الرياضة البحتة بعلوم القاهرة في اكتوبر سنة ١٩٥٢ ، وكانت سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٣ ، ١٩٥٣ - ١٩٥٤ صعبة للأحداث السياسية التي وقعت فيها ، ويكفي أن أذكر محاكمة خميس والبقري في كفر الدوار أمام مجلس عسكري والحكم بإعدامهما وتنفيذ هذا الحكم الجائر ، وأن أذكر الصراع الذي جرى بين رئيس الجمهورية محمد نجيب وبقية أعضاء مجلس الثورة ، وموقف خالد محيي الدين في هذه المعمعة ، وكنا بطبيعة الحال نتعاطف معه ، ومحاكمات الضابط التي جرت في تلك السنوات ، وما جرى في أزمة مارس ١٩٥٤ .

ولقد بدا لنا - نحن أساتذة الجامعة - أن الحل الصحيح إزاء كل هذه الأحداث العاصفة هو في عودة الحياة النيابية وحل مجلس قيادة الثورة وعودة الجيش إلى ثكناته . ووقع عدد منا مذكرة بهذا المعنى لرفعها إلى المسئولين .

وسافرت فى أول صيف ١٩٥٤ إلى انجلترا لاستكمال بعض أبحاثى العلمية التى كانت فى حاجة إلى حسابات لم تكن متاحة بالقاهرة . وفى لندن عرض علىَّ أستاذى وظيفة محاضر «أ» Senior Lecturer فى كلية تشيلسى للعلوم والتكنولوجيا فاعتذرت لأننى كنت أدرك أن جامعة القاهرة لن توافق على ذلك . وعندما عدت إلى مصر فى أواخر سبتمبر سنة ١٩٥٤ فوجئت بصدور قرار من مجلس قيادة الثورة فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٤ بفصل ٤٣ من أساتذة الجامعات معظمهم ممن وقعوا على المذكرة إياها فى مارس سنة ١٩٥٤، وكان من بين هؤلاء محمود العالم، عبد المنعم الشرقاوى ، توفيق الشارى ، لويس عوض ، فوزى منصور ، وكاتب هذه السطور .

وأبرقت إلى أستاذى الانجليزى بموافقتى على تعيينى فى لندن ، وشرحت له فى خطاب خاص ظروف فصلى من الجامعة . وقد استطعت السفر إلى بيروت فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، ومكثت بها أربعة شهور محاضرا فى فرع معهد

الإحصاء الدولى ببيروت حتى صدر قرار تعيينى فى لندن فى أول سنة ١٩٥٥ فسافرت إلى انجلترا وبدأت عملى هناك بالجامعة .

كنت - منذ عودتى إلى مصر عام ١٩٥٢ - مواظباً على نشر مقالاتى الأسبوعية فى مجلة روز اليوسف ، بل لقد وصل الأمر - عندما التحق فتحى غانم بأخبار اليوم - أن كلفنى الأستاذ إحسان عبد القدوس بتحرير باب «أدب» فى المجلة وواظبت على هذا شهوراً عدة .

ولقد حرصت بعد أن استقر بى الحال فى لندن على مراسلة مجلة روز اليوسف بمقالاتى فى قضايا الثقافة والعلم والأدب . وكتب إحسان عبد القدوس فى مارس سنة ١٩٥٥ مقاله الشهير (الرجل الذى سرقه الانجليز) دعا فيه إلى عودتى إلى الجامعة فى مصر - ورددت عليه بمقال موجز أرحب فيه بهذه العودة إن وافق المسئولون .

التفرغ للواجب الوطنى

لكن المسئولين لم يوافقوا بالطبع ، وهكذا بقيت فى لندن حتى يوليو سنة ١٩٥٦ عندما أمم جمال عبد الناصر قناة

السويس . وأحسست بطبيعة الحال أن واجبى أن أدافع عن هذا العمل وأن أشرح فى اجتماعات النقابات فى بريطانيا تاريخ المظالم التي وقعت على شعب مصر عند بناء هذه القناة وسيطرة الأجانب عليها .

وحرصا منى على عدم إحراج الكلية التى أعمل بها قررت الاستقالة من عملي والتفرغ لهذا الواجب الوطنى . وبالفعل ذهبت إلى مدن بريطانيا المختلفة حيث كان الطلب شديدا على توضيح وجهة نظر مصر فى التأميم . وكانت الاجتماعات هى فى الأساس اجتماعات دعت إليها نقابات العمال التى عارضت الحرب ضد مصر ، وانتهت الأمور إلى اجتماع الطرف الأغر الشهير الذى خطب فيه نواب حزب العمال كما خطبت فيه شارحا وجهة نظر مصر. ولقد قدر أيامها أن عدد من حضروا هذا الاجتماع الجماهيرى يزيد عن الخمسين ألفاً.

وهكذا عدت إلى القاهرة من جديد فى ديسمبر سنة ١٩٥٦ ،ولم أكن أدرى ماذا سأفعل بالقاهرة . وبعد وصولى

بأيام فوجئت باتصال من خالد محيى الدين - وكان قد بدأ في إصدار جريدة المساء - يعرض علىّ أن أعمل معه فى الجريدة .

أصبحت صحفيا

وبطبيعة الحال وافقت لأنه لم يكن هناك عمل آخر . وهكذا أصبحت صحفيا بعد أن كنت مدرسا جامعيا . وبدأت أكتب فى الشئون العربية وساعد على ذلك أن الجريدة أرسلتنى فى زيارات عربية متعددة ، منها مثلا أننى كنت أول صحفى مصرى يدخل قطاع غزة بعد جلاء اليهود عنها فى يناير سنة ١٩٥٧ ، كما سافرت إلى الأردن وسوريا ولبنان والعراق ، واجتمعت بعدد من زعماء تلك البلدان ، وأدى عملى الصحفى إلى توثيق صلتى بهم .

وقد ظللت فى هذا العمل الصحفى إلى يناير سنة ١٩٥٩ حيث جرى اعتقالى مرة أخرى ضمن حملة اعتقال جميع اليساريين المشتغلين بالعمل العام . ومن أطرف ذكريات تلك المرحلة (مرحلة العمل فى جريدة المساء) أننى كنت قد أرسلت

بحثين علميين إلى مجلة بيومترمكا "Biometrica" البريطانية وأنا فى لندن . ولم تتيسر الموافقة على نشرهما ونشرتهما فعلا إلا بعد تركى بريطانيا والتحاقى بجريدة المساء . ولا أعرف كيف أرسلت المجلة العلمية نسخا من بحوثى على جريدة المساء . وطبعا كنت منهمكا آنذاك فى شئون الصحافة حتى بدت لى هذه الأبحاث وكأنه شىء غريب علىَّ مع أننى كاتبها منذ سنتين .

والأغرب من هذا أننى فوجئت ذات صباح فى جريدة المساء بمدير جامعة أسيوط - الدكتور سليمان حزين - يطرق بابى ورحبت به كثيرا وإن كنت لم أدرك سبب الزيارة . وقال لى إنه كان فى زيارة لأستاذى محمد مرسى أحمد ، وكان آنذاك وكيلا لجامعة القاهرة يسأله أن يرشح لجامعة أسيوط . أستاذا مساعداً للرياضة البحتة فى كلية العلوم ، وأن الدكتور مرسى رشحنى !!

وقلت له أننى غارق لأذنى فى عملى الصحفى بالقاهرة وأنا أفضله طبعا على عملى بأسيوط وعلى أية حال ، فقد كان

تقديرى أن كمال الدين حسين وزير التعليم آنذاك لن يوافق على عودتى إلى الجامعة .

لكن سليمان حزين كان حريصا على تعيينى بأى شكل ، وقال لى أن هناك طائرة يومية بين القاهرة وأسيوط وأن المطلوب فقط هو أن أذهب إلى أسيوط يومين أسبوعياً أحاضر فيهما فى الرياضة البحتة ، ولا مانع من أن أستمر فى عملى بالصحافة بقية أيام الأسبوع ، أما موافقة كمال الدين حسين فقد قال حزين : أترك لى هذا الأمر وأنا كفيل بإقناعه .

وبالفعل أعلنت جامعة أسيوط فى الصحف عن وظيفة أستاذ مساعد فى الرياضة البحتة ، وخوفا من أن أكون لم أنتبه للإعلان أرسل لى سليمان حزين نسخة منه وطلبا للتعيين لكى أملأه وبالفعل أرسلت طلب التعيين إلى جامعة أسيوط بعد أن ملأته . وبقيت منتظرا النتيجة .

إلى أن فوجئت بدخول سليمان حزين مرة أخرى إلى مكتبى فى جريدة المساء وقال وهو فى أشد حالات الخجل أنه

فشل فى إقناع كمال الدين حسين بالموافقة على تعيينى أستاذاً مساعدا بجامعة أسيوط .

وهكذا بقيت فى عملى الصحفى إلى أن جرى اعتقالى فى حملة أول يناير سنة ١٩٥٩ ضمن مئات من اليساريين المصريين ، ثم جرى تقديمى إلى مجلس عسكرى برئاسة اللواء هلال عبد الله هلال مدير سلاح المدفعية ، وكان معى فى المحاكمة الدكتور فؤاد مرسى والدكتور إسماعيل صبرى والاستاذ محمد سيد أحمد والأستاذ محمود العالم وآخرون ، وربما كان العدد الذى قدم للمحاكمة واحداً وستين .

مع أن هذا المجلس العسكرى حكم ببراءتى إلا أننى بقيت فى معتقل الواحات حتى ٣ إبريل سنة ١٩٦٤ عندما صدر قرار عبد الناصر بالإفراج عن كل اليساريين . لقد بقيت فى المعتقل خمس سنوات وثلاثة شهور ، خرجت بعدها وأنا لا أعرف إن كنت سوف أعود للعمل للصحافة أم لا .

لكننى فوجئت بصدور قرار جمهورى بتعيينى مديراً عاما للبحوث فى وزارة الخزانة فى يوليو ١٩٦٤ ، وكان وزير

الخــزانة آنذاك (الدكتور نزيه ضيف) زميلا لى فى الدراسة بالمرحلة الثانوية ، وكان هو الذى أبلغ عبد الناصر باحتياجه لى للعمل معه بالوزارة .

ومع أننى لم أكن متحمساً أبدا للعمل بالدواوين الحكومية إلا أننى بالطبع شكرت الدكتور نزيه على مبادرته ، وبقيت أعمل معه فى مكتبه نحو عام ونصف العام إلى أن اتصل بى أستاذى الدكتور محمد مرسى أحمد - وكان آنذاك مديرا لجامعة عين شمس - وأبلغنى أن كرسى الرياضة البحتة فى علوم عين شمس قد أصبح شاغراً بوفاة شاغله ، وأنهم ينوون أن يعلنوا عن هذه الوظيفة فى الصحف واقترح أن أتقدم ضمن المتقدمين .

عبد الناصر يوافق على تعيينى بالجامعة

وبالفعل تقدمت بطلب لشغل هذا الكرسى ، وخوفا من أن أواجه معارضة أجهزة الأمن فى عودتى إلى الجامعة - أرسلت خطابا إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل أشرح له الموقف وأرجوه التدخل حتى لا يتعطل الموضوع مرة أخرى

كما حدث في الجامعة أسيوط ، وكان الأستاذ هيكل كريما في موقفه ، فقد اتصل بالرئيس عبد الناصر فعلا ثم اتصل بى هاتفيا وأكد لى موافقة الرئيس عبد الناصر على عودتي إلى الجامعة إن رأت الجامعة أنها فى حاجة لى .

وقد اختارتنى اللجنة العلمية لشغل كرسى الرياضة البحتة فعلا ، وبقيت شهرين بعد ذلك إلى أن أصدر مجلس جامعة عين شمس قرارا بتعييني .

وهكذا عدت إلى الجامعة في يناير ١٩٦٦ وبقيت فيها أدرس وأشرف على رسائل علمية حتى اليوم.

ذكريات الإسكندرية

عــشت فى الإسكندرية ست سنوات (١٩٤٤ - ١٩٥٠) معيداً بكلية العلوم بجامعة الإسكندرية ، وذكرياتى السياسية عن تلك الحقبة - إنما تعود إلى أكثر من خمسين عاماً . ومع أننى اشتـهرت فى شبـابى بقوة الذاكـرة ، إلا أن وضـعى الحالى - وقد بلغت السابعة والسبعين - لا يسمح لى بالثقة الكاملة فى هذه الذاكرة . وقد حاولت أن أستعيد مع بعض الأصدقاء ممن زاملونى فى تلك الحقبة بالاسكندرية ، بعضا من هذه الذكريات وأحداثها .. ولذلك فإننى أرجو ألا أكون قد أخطأت فى بعض التفاصيل .

ولقد أشرت فى مقال سابق (هلال - ديسمبر ٢٠٠٠) إلى مجموعة المعيدين فى كلية العلوم الذين شكلوا حلقة دراسية ماركسية لمناقشة الأوضاع فى مصر ، خصوصاً الاحتلال البريطانى ومشكلة الفقر ، وكانت هناك بالقاهرة حلقات أوسع بكلية العلوم كانت لنا نموذجا يحتذى .

وبالطبع سعينا إلى تدعيم صلاتنا بقوى المعارضة الأخرى فى أوساط الشباب ، وخصوصاً شباب الطليعة الوفدية ، وإلى

حد ما شباب مصر الفتاة من الطلاب ، كما سعينا إلى تجنيد أعداد من طلاب الجامعة إلى وجهات نظرنا وإلى حلقتنا ونجحنا في ذلك نجاحاً كبيراً فأصبحت لدينا أعداد غير قليلة في كليات العلوم والحقوق والطب والآداب في زمن قصير . وهكذا تشكل تنظيم ماركسي داخل جامعة الاسكندرية . ومع أن اهتمامنا انصرف في مبدأ الأمر إلى تثقيف الأعضاء بالفكر اليساري ، مع تجنب العمل السياسي قبل أن تتكون مجموعة فكرية يوثق بها ويعتمد على مبادراتها ، فإن أحداث البلاد السياسية المتسارعة قد اضطرتنا إلى دخول حلبة العمل السياسي مستعينين في ذلك بصلاتنا القوية بالطليعة الوفدية التي كانت تتقارب في آرائها السياسية مع آرائنا .

ولقد وقعت أحداث ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ بالقاهرة وقادت هذه الأحداث اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التي كان الماركسيون القاهريون عمادها ، وكان اسماعيل صدقي هو رئيس الوزراء آنذاك . ولقد أطلق جنود الاحتلال البريطاني من ثكنات قصر النيل (مكان فندق هيلتون النيل ومبني

الجامعة العربية اليوم) النار على المتظاهرين فسقط عدد من الشهداء والجرحى وأدى هذا إلى غليان وطنى عارم .

ومع أن الاسكندرية لم تشترك فى أحداث ٢١ فبراير ، فإن أحداث ٥ مارس بالاسكندرية كانت تجاوبا مع ما حدث بالقاهرة ، وإن كانت أكثر عنفاً من جانب المتظاهرين الذين أحرقوا مراكز حراسة القوات البريطانية فى محطة الرمل وفى أماكن أخرى ، ومات فى هذه الأحداث عدد من الجنود البريطانيين .

لقد كانت هذه السنوات هى سنوات مفاوضات إسماعيل صدقى مع وزير خارجية بريطانية إيرنست بيفن ، التى انتهت فى آخر الأمر بما عرف باتفاق صدقى - بيفن ، وكانت كل القوى الوطنية فى مصر معارضة لمشروع هذا الاتفاق ، وكان حزب الوفد بما له من نفوذ واسع فى مقدمة المعارضين .

معارضة اتفاق
صدقى - بيفن

وأتذكر أنه فى شهر أبريل من عام ١٩٤٦ قامت مظاهرة من كليتى العلوم والحقوق بجامعة الاسكندرية (وكانت هاتان الكليتان تشغلان مبانى مدرسة العباسية الثانوية التى تقع على ربوة عالية فى حى محرم بك) للتعبير عن معارضة مشروع اتفاق صدقى - بيفن ، وكانت قوات الشرطة تقف أسفل الربوة لاعتراض المظاهرة وتفريقها بالقوة إن لزم الأمر.

ثم وقع حادث مفاجىء ذهلنا له جميعاً ، ذلك أن طالباً من فوق الربوة أطلق النار على أحد ضباط الشرطة فأراده قتيلاً. وحتى اليوم لا نعلم من هو هذا الطالب الذى قام بهذا العمل الاستفزازى الدنىء وإن كانت شكوكنا آنذاك اتجهت إلى شباب مصر الفتاة من الطلاب .

وبالطبع كان رد فعل الشرطة عنيفاً ، إذ حوصرت مبانى الكليتين بالكامل وأطلق الرصاص على مبانى الكلية بشكل

عشوائى وألقى القبض على أعضاء هيئة التدريس الذين حاولوا الخروج إلى الطريق العام . وظل هذا الحصار مضروبا حول الجامعة من الصباح إلى منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم (محمد العشماوى باشا) من القاهرة بالطائرة وأمر برفع الحصار عن الجامعة التى احتلتها قوات الجيش فى الصباح .

وقمنا ونحن محاصرون بكتابة مذكرة احتجاج على هذا الحصار ، ونجحنا فى الحصول على توقيع عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس على المذكرة ، وكان فى مقدمة الموقعين عميد كلية العلوم الدكتور حسين فوزى وعميد كلية الحقوق الدكتور عبد المعطى خيال ، وإن كان بعض اساتذة كلية العلوم قد رفضوا التوقيع .

وكانت المشكلة بعد جمع التوقيعات هى كيفية إرسال المذكرة إلى صحيفة المعارضة الرئيسية : الوفد المصرى . وتفتق ذهنى عن حل ، وهو أن أتصل تليفونيا بصديق لى بالإسكندرية وأن أملى عليه نص المذكرة التى كانت قصيرة

على أى حال ، ولما ذهب هذا الصديق إلى مكتب التلغراف لإرسال البرقية رفض موظف البريد إرسالها وعليها توقيع عام مثل أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ، وصمم على وجود اسم لشخص يمكن مساءلته . ولم يجد هذا الصديق مفرا من إعطاء اسمى . وهكذا ظهرت برقية الاحتجاج فى اليوم التالى فى صحيفة الوفد المصرى وعليها التوقيع التالى : أعضاء هيئة التدريس (عنهم عبد العظيم أنيس) .

وبالطبع هاج صدقى باشا من هذه البرقية وطلب من العشماوى باشا التحقيق فى الموضوع . وظن الوزير أن الموقع على هذه البرقية استاذ بالجامعة وليس معيداً صغيراً واستدعانى إلى مكتب مدير الجامعة للتحقيق معى وحضرت فى صحبة الدكتور حسين فوزى عميد الكلية ، وكان من حسن حظى أنه كان فى جيبى نص مذكرة الاحتجاج وعليها التوقيعات بما فى ذلك توقيع عميدى العلوم والحقوق ، وعندما قدمتها للوزير وأكدت له أن هذا كان موقفا جماعياً أسقط فى يده ولم يستطع معاقبتى .

لكن اسمى ظل محفوراً لدى السلطات فى انتظار مناسبة أخرى للانتقام ، وجاءت هذه المناسبة فى يوليو عام ١٩٤٦ فى حملة صدقى المشهورة التى أعتقل فيها العشرات من المثقفين المصريين بما فى ذلك محمد مندور وزكى عبد القادر . وكنت بطبيعة الحال فى طليعة المطلوب اعتقالهم بالاسكندرية .

الحظ فى صالحى !

لكن الحظ لعب دوره مرة أخرى فى مساعدتى ، فقد كنت كثير التردد على منزل نائب سعدى بمحرم بك بالاسكندرية لصلة تربطنى بأولاده . وظن البوليس أننى أقيم هناك ، وهكذا ذهبوا لتفتيش منزله وهم لا يعلمون أنه نائب بالبرلمان . فلما سألهم إن كان لديهم أمر من رئيس البرلمان بذلك أسقط فى أيديهم ثم اتصلوا بحكمدار الاسكندرية يسألونه الرأى قبل تفتيش المنزل فأمرهم بتفتيش المنزل مهما كان الأمر .

وبالطبع لم يجدونى ولم يجدوا أى شىء يهمهم ولم يسكت النائب إذ تقدم باستجواب فى البرلمان ، وكانت العلاقات قد بدأت تسوء بين رئيس الوزراء وحزب السعديين ، فاشتعلت

جلسة البرلمان هجوماً على الحكومة وعلى رئيسها . وألقى صدقي باشا بياناً في البرلمان قال فيه إن التفتيش تم بحثاً عن معيد شيوعي ، وأن الضابط الذى قام بذلك نقل إلى أسوان عقاباً له على هذا الخطأ . وصدرت الصحف بمانشيت عريض في الصفحة الأولى بوقائع الجلسة واسمى بطبيعة الحال موجود في ذلك المانشيت !

وقد قرأت كل ذلك وأنا أقيم عند صديق قاهرى يملك فيلا بالاسكندرية ولم أسلم نفسي للشرطة حتى انتهت القضية بالإفراج عن الجميع ، فعدت إلى الجامعة وسألنى وكيل النيابة أسئلة شكلية ثم أفرج عنى في الحال خصوصاً عندما علم بإضراب طلاب كلية العلوم احتجاجا على اعتقالى . وطلب وكيل النيابة منى الذهاب إلى الكلية فوراً حتى يرانى الجميع وينتهى الموضوع ، وهو ما تم بالفعل .

***

الحدث الثانى المهم الذى جرى بالاسكندرية وأدى إلى اشتعال مد ثورى بها هو موضوع إضراب الشرطة يومى ٥ و

٦ ابريل من عام ١٩٤٨ . وبالطبع فهذا الإضراب شمل القاهرة والاسكندرية وبعض المدن الأخرى . وكان الأساس فى هذا الإضراب هو المطالبة بزيادة الرواتب . وبالطبع كان لهذا الحدث طعم خاص لأنه لم يسبق له وقوع ، ولم تكن قوى التمرد فى مصر يد فيه ، ولكنه أخذ طعما خاصاً بالاسكندرية إذ تحول إلى هبة شعبية شملت كل طوائف الشعب ، وخصوصاً العمال والطلاب الذين ساندوا المظاهرات التى قامت بها قوات الشرطة بالاسكندرية وانضموا إليها وامتلأت بهم ساحات الميادين العامة وخصوصاً ساحة المنشية وكان جنود الشرطة يمضون فى مظاهراتهم رافعين بنادقهم إلى السماء وعلى أعلا كل سونكى منها رغيف عيش .

وشعر الشعب أنه بلا حكومة تتحكم فى أعماله ، حتى أن بعض الظرفاء من أبناء الشعب كانوا يصيحون فى الشعراء وهم يضحكون : «مافيش حكومة ، اللى عايز يشلح النهاردة يقدر» .

وقد كان لهذا الهيجان الشعبى بالاسكندرية أسبابه الخاصة ، وأتذكر على وجه الخصوص مسألتين ساهمتا فى هذا الالتهاب الشعبى أولاهما مطالب العمال بعدما توقفت بعض المصانع عن العمل أو استغنت عن بعض العمال أو خفضت أجورهم وبمعنى آخر كان هناك اختمار ثورى عمالي خصوصاً فى أوساط عمال مصانع كرموز كالغزل الأهلية . ولقد كان الطلبة ومعيدو الجامعة اليساريون متحمسين للدفاع عن مطالب العمال وتعبئة الرأى العام السكندرى فى صفهم . وساعد على ذلك أن زملاءنا فى القاهرة كانوا قد بدأوا فى إصدار صحيفة أسبوعية تسمى «الجماهير» وكنا نحن المعيدين نقوم بتوزيع هذه المجلة علناً فى أحياء العمال بالاسكندرية وعلى محطات ترام الرمل ، وكان هذا محل اندهاش أساتذة الجامعة الذين كانوا يشاهدوننا وهم فى الترام ونحن على الأرصفة ننادى على جريدة الجماهير كأى بائع صحف .

أما المسألة الثانية ذات الصلة فهى ما عرف بالاسكندرية بمسألة سعد فريد .

كان سعد فريد طالبا بكلية العلوم قام بتوزيع منشور مساند للعمال فى حى كرموز ، وقد قبضت عليه الشرطة قبل أحداث ٥ و ٦ إبريل ومعه العديد من نسخ المنشور ، ويبدو أن الحكومة قد رأت فرصة فى هذا الموضوع لتأديب طلاب الاسكندرية المشاغبين فأجرت لسعد فريد محاكمة سريعة وحكمت عليه المحكمة بستة أشهر سجناً، وقد أثار الحكم على سعد فريد ثائرة طلاب الجامعة ، فقد كان هذا أول حكم بالسجن يصدر على طالب بالجامعة لعمل سياسى.

وبدأت إضرابات الطلاب ، لكنها لم تحقق نتيجة فى مسألة سعد فريد . ثم جاء إضراب البوليس وامتلأت ساحات الاسكندرية - وخصوصاً المنشية - بالجماهير الثائرة ، وأثار الطلاب المشتركون فى المظاهرات مسألة سعد فريد من جديد، وقررت مجموعة منهم الاتجاه إلى سجن الحدرة لإخراج سعد فريد منه لكن سلطات سجن الحدرة أوهمتهم أن سعد فريد أفرج عنه فعلاً .

فى هذا الجو الجماهيرى الثائر ينبغى أن أذكر واقعتين هامتين .

الأولى أننا قررنا توزيع منشور باسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى يساند المطالب الشعبية سواء مطالب الشرطة أو العمال أو الطلبة ، وقد صدرنا هذا المنشور بشعار جديد «تسقط الملكية وتحيا الجمهورية » وكان هذا أول منشور يوزع فى مصر تحت هذا الشعار الثورى ، وقد أشارت إليه صحيفة الأهرام فى اليوم التالى وإن لم تذكر الشعار نفسه واكتفت بالقول إن منشورا ثوريا وزع بالاسكندرية .

وللتاريخ كان الشاعر كمال عبد الحليم هو الذى كتب الصياغة الأولى للمنشور وإن كنت قد عدلت فيه ، وقمت بطبع المنشور فى مطبعة عادية فى محرم بك قبلت طبعه لأنه لا توجد حكومة ! وأشرفت على توصيله لمن قاموا بالتوزيع فى أحياء الاسكندرية المختلفة .

أما الواقعة الثانية فتتعلق برد حكومة النقراشى على ما يجرى بالاسكندرية . فقد أنزلت قوات الجيش وملأت دباباته

الميـادين العـامـة وبدأت قـواته فى إطلاق الرصـاص على المتظاهرين فسقط عدد من القتلى ، وجرى هذا خصوصاً فى ميدان المنشية ، وكنت من مشاهدى أحداثه .

إعلان الأحكام العرفية !

وفى ظنى أن أحداث الاسكندرية الثورية كانت من العوامل التى جعلت حكومة النقراشى تنتهز فرصة إرسال قوات مصرية إلى فلسطين لكى تعلن الأحكام العرفية فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ وتعتقل كل القوى النشيطة سياسياً من اليسار وشباب الوفد ، ثم جرى بعد ذلك اعتقال شباب الإخوان المسلمين عندما توقفت الحرب فى فلسطين وأعلنت الهدنة .

ومع أننى أفلت بالمصادفة من الاعتقال فى ١٥ مايو فإننى اعتقلت فى شهر يونيو ، وكنت ذاهبا لحضور اجتماع فى منزل د. شريف حتاته بالسيوفى ، لكنه كان قد تم اعتقاله قبل ذلك بيوم هو والشاعر كمال عبد الحليم ، ورتبت الشرطة كميناً داخل المنزل للقبض على كل من يزور المنزل ، وهكذا

وقعت فى كمين ونقلت إلى معتقل أبو قير ، وبقيت فيه لمدة ستة أشهر ثم نقلت مع آخرين من اليساريين وشباب الوفد إلى معتقل هاكستيب فى طريق الاسماعيلية ، وبعد عدة أشهر نقلت مع آخرين إلى معتقل الطور على البحر الأحمر إضرابا عن الطعام استمر فيما أذكر لمدة أسبوعين مطالبين بتحسين ظروف معيشتنا . وقد أدى هذا الاضراب إلى مرضى بعد أن كان قد انتهى بوعد من المسئولين المحليين بتحسين ظروف حياتنا .

وكانت وزارة حسين سرى قد عادت للإعداد للانتخابات وكان فؤاد سراج الدين (باشا) وزيرا للزراعة فى تلك الحكومة وتحدث أخى الكبير ابراهيم معه عن طريق بعض أصدقائه من الوفديين حول ظروفى الصحية وأدى هذا إلى نقلى إلى معسكر هاكستيب حيث حضرت لجنة طبية لفحصى ثم أصدرت قرارها بنقلى إلى مستشفى الدمرداش للعلاج من التهاب كبدى وبائى . وبقيت فى المستشفى قريباً من منزل

أهلى حتى جرت الانتخابات فى آخر عام ١٩٤٩ ، وحصل الوفد على أغلبية مقاعد البرلمان وتشكلت حكومة الوفد التى أفرجت عن جميع المعتقلين فى يناير عام ١٩٥٠ .

***

بقيت نقطة واحد ينبغى توضيحها . فقد ورد فى أحد كتب الدكتور رفعت السعيد فى وصفه لأحداث الاسكندرية أننى وقفت فى ميدان المنشية بين المتظاهرين وألقيت قصيدة هذا مطلعها .

عساكر الجيش والبوليس خطبكمو

خطب البلاد فعادوا من يعاديها

وبالطبع وسط أزيز رصاص دبابات الجيش لم يكن هناك مجال لإلقاء قصائد ولا يحزنون . والحقيقة أن هذه القصيدة ألقيت فى احتفال بمعتقل الطور بعد مرور سنة على إضراب البوليس ، وقد حضر جنود وضباط الشرطة بعد فى المعتقل هذا الاحتفال وصفقوا كثيراً للخطب والقصائد التى ألقيت فيه .

ذكريات لندن

عشت فى لندن فترتين متقاربتين من حياتى ، الفترة الأولى هى التى كنت أعد فيها رسالة الدكتوراه ، وهى من سبتمبر ١٩٥٠ حتى سبتمبر ١٩٥٢ وبعدها عدت إلى القاهرة حيث عينت مدرسا بكلية العلوم جامعة القاهرة ، قسم الرياضة البحتة .

وجاءت لى فرصة تعيينى مدرسا بإحدى كليات جامعة لندن فى الفترة من مارس ١٩٥٥ حتى نوفمبر ١٩٥٦ ، وهكذا عشت الفترة الثانية فى لندن حتى جاء تأميم قناة السويس فى يونيو سنة ١٩٥٦ فآثرت الاستقالة من عملى فى لندن حتى أتفرغ للعمل الجماهيرى الذى كان مطلوبا فى بريطانيا للدفاع عن وجهة نظر مصر فى تأميم القناة .

ولقد فكرت فى الفترة الأولى - فترة دراسة - الدكتوراه- كيف يمكن خدمة شعب مصر ونحن فى الخارج؟ وانتهيت مع زملاء آخرين إلى فكرتين أساسيتين : الأولى أن نعرف الشعب البريطانى بحقيقة ما يجرى فى

مصر قدر الإمكان ، ومن وجهة النظر الشعبية ، أى من وجهة نظر العمال والفلاحين والطبقة الوسطى وخصوصا شرائحها المتدنية .

والفكرة الثانية هى أن نكون على اتصال بالأحداث المهمة التى تجرى فى مصر وأن نبدى رأينا فيها قدر الإمكان حتى يشعر المسئولون فى مصر أن طلاب البعثات المصريين يفكرون فى مصر ويطالبون أن يأخذ رأيهم فى الحسبان .

تشكيل لجنة وطنية

وقد وصلت إلى قناعة أن الخطوة الأولى لتحقيق هاتين الفكرتين تتمثل فى تشكيل لجنة وطنية تكون بمثابة المحرك الأول لكل هذا العمل ، وهكذا تشكلت اللجنة الوطنية من الدكتور فايق فريد والدكتورة حكمت أبو زيد (التى أصبحت وزيرة الشئون الاجتماعية خلال حكم عبد الناصر) والدكتور محمد عبد الحليم وكاتب هذه السطور .

وكان العمل الأول لنا هو إصدار نشرة غير دورية توزع على النقابات البريطانية اسمها «السلام والاستقلال» وكان لهذا الاسم قصة أود أن أشرحها ، لقد سبقنا فى هذه العمل الصديق عبد المعبود الجبيلى الذى كان يدرس لدكتوراه الدولة فى معمل كورى بباريس ، وقد أرسل لى نسخة من نشرته التى كانت تكتب بالفرنسية طبعا وتوزع على النقابات الفرنسية وتحتوى على المهم من أخبار مصر التى يهمنا إطلاع الرأى العام الأوروبى عليها .

وأرسل لى عبد المعبود نسخة من نشرته وابتدأنا فى أول الأمر بترجمتها إلى الانجليزية وتوزيعها على النقابات البريطانية بالبريد، ثم أخذنا بعد ذلك فى تغيير مادة نشرتنا عن نشرة باريس وإن احتفظنا بالاسم نفسه «السلام والاستقلا» .

كما قمت عند وقوع أحداث مهمة فى مصر بكتابة مقال تفسيرى فى صحيفة الحزب الشيوعى الانجليزى - الديلى وركر باسم مستعار هو «صِ الأيوبى» Aouby ولكن لم يكن للجنة الوطنية علاقة بهذا العمل .

أما خدمة الفكرة الثانية التى تمثلت فى أن نكون على صلة بأحداث مصر وأن نكون رأينا قدر الإمكان معروفا وذا تأثير على هذه الأحداث فقد تمثل ذلك فى دعوة اللجنة الوطنية طلاب البعثات فى مدن بريطانيا المختلفة إلى الاجتماع فى النادى المصرى بلندن ومناقشة هذه الأحداث ثم بإرسال رأينا إلى المسئولين فى مصر بعد ذلك .

وقد حققت هذه الفكرة نجاحا كبيرا ، ونجحنا فى تنظيم عدة مؤتمرات فى لندن فى المناسبات الوطنية المختلفة ، فى مقدمتها مناسبة قيام الوزارة الوفدية بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وحوادث الصدام بين قوات البوليس المصرى والجيش البريطانى فى الاسماعيلية ، وبالطبع أعلنا تضامننا مع إلغاء المعاهدة وأدنا العمل البريطاني الوطنى فى أحداث الاسماعيلية .

أكبر مؤتمرين

إلا أن أكبر مؤتمرين دعونا إليهما وتوافد الطلاب المصريون من كافة المدن لحضورهما فكانا بمناسبة حريق

القاهرة فى يناير ١٩٥٢ ثم بمناسبة وقوع الثورة فى يوليو ١٩٥٢ .

فى المؤتمر الأول الذى انعقد فى ٢٨ يناير ١٩٥٢ (بعد حريق القاهرة) كان الطلاب فى حالة غليان ، ومع أننا لم نكن نعرف على وجه اليقين من هم الذين قاموا بعملية الحريق ، فإن شكوكنا آنذاك كانت حول دور السراى الملكية فى هذه العملية البشعة للتخلص من الوزارة الوفدية لكننا بالطبع لم نكن نملك أدلة حاسمة ، المهم أن هذه الشكوك انعكست فى المؤتمر حين قام أحد طلاب البعثات الدكتور عبد الحميد أمين نجل الكاتب المعروف أحمد أمين وطالب الملك فاروق أن يتنحى عن العرش ، وأحتبست الأنفاس بعد سماع كلمة عبد الحميد، ومما زاد من الحرج أن وكيل مكتب البعثات (دكتور عبد العزيز عتيق) كان حاضرا المؤتمر ، وهو بالمناسبة زوج شقيقة الدكتور عبد الحميد أمين !

المهم انتهى المؤتمر بسماع إقالة وزارة مصطفى النحاس، وبقينا شهورا عدة فى حالة غليان وإن كنا لا نعرف ماذا نفعل .

حتى فوجئنا بوقوع ثوة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وقد أثار هذا الحديث الكبير حيرتنا فى مبدأ الأمر ، إذ كيف يستولى الجيش على السلطة والقوات البريطانية موجودة فى القنال ما لم يكن هناك تنسيق بينها وبين قادة هذا العمل ؟

كان هذا الخاطر الأول لنا ، لكننا سمعنا أن هناك ضابطا (أحمر) فى قيادة الثورة هو خالد محيى الدين ، وهذا يناقض الخاطر الأول .

واتجهت خواطرنا أيضا إلى دور أميريكى فى هذه الحركة يوم أذيع أن على صبرى كلف بالاتصال بالسفارة الأميريكية.

لكننا حزمنا أمرنا فى نهاية الأمر بتأييد الثورة عندما أعلن عن رحيل الملك وتنازله عن العرش ، وعن قانون جديد للإصلاح الزراعى ، واتخذ مؤتمرنا قرارا بهذا التأييد وأرسلت به برقية إلى الإذاعة المصرية حيث أذيع على الفور .

* * *

والآن أتحول إلى الفترة الثانية التى عشتها فى لندن مدرسا بإحدى كليات الجامعة .

لقد وصلت إلى لندن لتسلم عملى بالجامعة فى فبراير (أو مارس) ١٩٥٥ قادما من بيروت ، وكنت قد غادرت القاهرة فى نوفمبر ١٩٥٤ (بعد فصلى من جامعة القاهرة) لتدريس مقرر فى الإحصاء باللغة العربية فى فرع معهد الإحصاء الدولى ببيروت لمدة ثلاثة شهور .

وقد قبلت القيام بهذا العمل فى انتظار قرار اختيارى أو اختيار غيرى فى وظيفة لندن ، ولحسن الحظ قررت الكلية اختيارى وأرسلت لى خطابا على بيروت بذلك ، وكانت فترة بيروت هى الفترة التى كتبت فيها مقالاتى الثلاثة عن الرواية المصرية واتفقت فيها مع دار نشر بيروتية على نشر كتاب (فى الثقافة المصرية) وهو الكتاب الذى احتوى على مقالاتى ومقالات الصديق محمود أمين العالم فى النقد الأدبى ، وتكفل الصديق اللبنانى محمد دكروب بالإشراف على إخراجه كما قام الشهيد حسين مردة بكتابة مقدمة ، وقد أثار هذا الكتاب فى السنوات الأولى لصدوره ضجة كبيرة فى أوساط الشباب.

المهم تفرغت فى لندن لعملى العلمى من إعداد المحاضرات والتـركـيـز على البـحـوث بـحـيث لم يكن عندى وقت للعـمل السـيـاسى ، وكنت أكـتـفى فى ذلك بـحـضـور الاجـتـمـاعـات السـيـاسـيـة المهـمـة ، وبتـوثيق عـلاقـتى بحـركـة «تحـرير المستـعـمـرات» التى كـانت بمثـابة مظلة واسـعـة تحطم جـمـيع أعوان اليسار المعـادى للاستعمار بقيادة نائب عمـالى يسارى مـعـروف فـينر بروكواى ، وكان اهتمام هذه الهيئة الأساسى بالمستـعمرات البريطانية فى أفريقيا آنذاك مثل غانا وأوغنذ ونيجيريا .. إلخ .

وعند انتـهاء عـملى بالكلية فى أواخـر يونيـو ١٩٥٢ قررت الاسـتـجـمـام أنا والعائلة (زوجتى وابنتى منى) فى جزيرة من جزر المانش تدعى جيرنسى فـيـمـا أذكر ذهبنا لقـضـاء شـهر يوليـو هنـاك ، وتمتـعنا بجـمـال الطبـيـعـة ، وبـجـو الريف الذى افتقده دائما باعتبـارى قاهرى قـح ، مثلا أتذكر أن الخضـرة والأبقار كـانت تملأ مسـاحة الفضـاء أمام الفندق الذى نزلنا فيه .

تأميم القناة

حتى جاء يوم فى يوليو قضيناه بطوله خارج الفندق وعندما عدنا فى المساء ونزلنا لتناول العشاء كالعادة فى قاعة الطعام فوجئنا بالحاضرين وكأن على رؤوسهم الطير ، لكن صديقا هنديا انحنى علىّ وقال بصوت خافت «ألم تسمع ؟ لقد أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس»، ولم أصدق فى مبدأ الأمر وحسبته يهزل كالعادة ، ولكن أكد الخبر وطلب منى أن أسمع B . B . C للتأكد .

وقضيت تلك الليلة دون نوم عمليا ، أفكر ماذا أعمل فى مثل هذا الوقت ، هل أستقيل من عملى مثلاً وأتفرغ للدفاع عن تأميم القناة ؟

وفى الصباح اتصلت بسكرتيرة «حركة تحرير المستعمرات» وهى سيدة انجليرية تمتاز بالنشاط والعمل الجماهيرى الواسع ، وقالت لى : أين أنت ؟ إننا نبحث عنك فى كل مكان ، لأننا فى حاجة إلى مثقف مصرى يشرح لأعضاء النقابات فى الاجتماعات التى نعدها فى المدن

المختلفة وجهة نظر مصر ، قلت : إنني سوف أعود إلى لندن بعد يومين ،

وكانت هذه المكالمة الهاتفية حاسمة في اتخاذ قرارى بالاستقالة من عملي منعا لإحراج كليتي من ناحية . ولأخذ كامل حريتي في هذا النشاط الجديد ، وأبرقت إلى الصديق محمود العالم بقراري الاستقالة في اليوم نفسه الذى أرسلت فيه خطاب استقالتى لعميد الكلية .

نشاط مكثف دفاعاً عن القناة

وعدت إلى لندن ، وبدأت أسافر إلى مدن بريطانيا المختلفة وفق الجدول الدي وضعته «حركة تحرير المستعمرات» للحديث في اجتماعات النقابات العمالية .. فى مانشستر ، وشفيلد ، وأدنبره ، وليفربول ، وبرمنجهام .. إلخ ، وتصادف حضور اثنين من العاملين فى الإذاعة المصرية هما عبد العزيز فهمى ويحيى أبو بكر فقاما بحضور بعض هذه الاجتماعات وتسجيل ما جرى فيها ، خصوصا الكلمات التى كنت ألقيها دفاعا عن التأميم وشرحا للمظالم التى حاقت بمصر عند بناء القناة .

والغريب فى كل هذا النشاط أن السفارة المصرية فى لندن لم تحاول أن تتصل بى لمساعدتى ، وأنا شخصيا لم أكن أعرف أحدا فى السفارة ، وكنت أخشى من الاتصال بالسفارة باعتبارى مفصولا من جامعة القاهرة بقرار لمجلس قيادة الثورة ، أى أن السفارة سوف تعتبرنى - إن اتصلت بأحد فيها - معاديا للنظام فى القاهرة .

وقد تبينت صحة هذه المخاوف عندما فوجئت وأنا فى قمة نشاطى هذا للدفاع عن تأميم القناة باتصال هاتفى من الملحق العسكرى فى السفارة المصرية يرجونى أن أمر عليه فى مكتبه .

كان آنذاك قد تحدد الاجتماع الجماهيرى الكبير للبريطانيين فى ميدان الطرف الأغر أواخر أكتوبر ، وكان قد أعلن عن المتكلمين فى هذا الاجتماع وكنت منهم فإذا بالملحق العسكرى يطلب منى أن أعتذر عن الاشتراك فى هذا الاجتماع الكبير ! وفيما يبدو خوفا من أن أهاجم النظام فى مصر ، ولكنى رفضت طلبه وقلت له : إن الاجتماع الذى

سوف يبدأ بمظاهرات من ماربل آرش غدا تنتهى عند الطرف الأغر ، ويضم خمسين ألفا من البريطانيين . فرصة ذهبية للدفاع عن تأميم القناة فكيف يمكن أن أعتذر عنه !

اجتماع الطرف الأغر

وبالفعل حدث الاجتماع الذى تكلم فيه نواب حزب العمال فى ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ كما تكلمت فيه وكان حزب العمال معارضا للحرب ، والغريب أننى بعد عودتى إلى القاهرة فى أوائل ديسمبر ١٩٥٥ فوجئت بشخص يسلم على بحرارة فى مترو مصر الجديدة وهو فى ملابس مدنية ، ولم أعرف فى مبدأ الأمر من هو وسألنى : ألا تتذكرنى ؟ فقلت : آسف مش واخد بالى .

وإذ به الملحق العسكرى الذى كان يطلب منى ألا أتحدث فى اجتماع الطرف الأغر ، وإذ به يعتذر عن طلبه هذا ويقول إنها كانت تعليمات من القاهرة وأنه أدرك خطأها بعد ذلك .

ولقد كان الدكتور مصطفى كمال حلمى - رئيس مجلس الشورى اليوم - من حضور هذا الاجتماع الجماهيرى وقد

سعى إلى مهنئا بعد سماع كلمتى ، وطبعا فإن صداقتنا قديمة لأننا خريجو كلية العلوم .

ومن المفارقات المثيرة للضحك أن إحدى الصحف البريطانية وأظنها «الديلى تلجراف»- كتبت بعد اجتماع الطرف الأغر مقالا ادعت فيه أن عبد الناصر أرسل واحدا من مساعديه الإعلاميين للتحدث فى الاجتماع ، وربما كان المقصود الأستاذ محمود أنيس الذى كان يعمل فى مصلحة الاستعلامات .

ثم أدركت الصحيفة خطأها واتصل بى أحد محرريها تليفونيا وتأكد أننى مدرس بلندن فكتب اعتذارا بعد ذلك عن هذا الخطأ .

وقررت العودة إلى مصر أنا وأسرتى ، خصوصا أن الأجهزة البريطانية بدأت تطاردنى وتسأل عنى أصحاب المنازل التى أقمت بها ، ولكن كيف الذهاب إلى مصر ، ومطار القاهرة مغلق بسبب الحرب ، ولا يوجد طيران مدنى بين مصر وبريطانيا ؟

لا مفر إذن من الذهاب جوا إلى الخرطوم ومن هناك نتدبر الأمر إلى القاهرة .

وبالفعل وصلنا إلى الخرطوم وبقينا فيها مع عدد من الأصدقاء والأقارب حتى جاءت أول طائرة مصرية أخذتنا إلى القاهرة فى أوائل ديسمبر ١٩٥٦.

ذكريات المساء

ليس هذا عنوانا رومانسيا ، وانما أشير هنا إلى ذكرياتى فى صحيفة «المساء» المصرية عندما عدت من بريطانيا أثر العدوان الثلاثى على مصر فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ بعد أن استقلت من عملى فى لندن ، اتصل بى الاستاذ خالد محيى الدين عارضا على أن أعمل معه فى صحيفة المساء ، فقبلت لأنه لم يكن أمامى من عمل آخر .

ولابد أنه فى تخمينى قد استأذن عبدالناصر قبل أن يتصل بى وأن عبدالناصر وافق على ذلك . واخترت أن أهتم بالشئون العربية فى صحيفة المساء .

كانت تلك الفترة من تاريخ مصر . مشرقة ومليئة بالآمال . لقد هزم العدوان الثلاثى واضطرت القوات الاسرائيلية إلى الإنسحاب من سيناء ومن قطاع غزة بعد أن دمرت خط السكة الحديد الذى يربط مصر بغزة ، كما انسحبت القوات البريطانية والفرنسية من منطقة القنال . ولاشك فى أن الولايات المتحدة قد ضغطت على حلفاء العدوان الثلاثى

للانسحاب بالاضافة إلى تهديد خروشوف بالتدخل العسكرى إن لم يتم الانسحاب .

وكان موقف الولايات المتحدة هذا – وايزنهاور بالذات – يعود إلى أن بريطانيا وفرنسا اخفتا عن واشنطن تفاصيل مشروع العدوان الذى تم التوقيع عليه سرا فى معاهدة «سيفر» . ولم يغفر إيزنهاور لإيدن هذا العمل وكان التهديد بزعزعة الجنيه الاسترلينى فى الأسواق الدولية كافيا . لا للانسحاب فحسب بل لإخراج إيدن من زعامة حزب المحافظين بعد ذلك . وبالطبع كانت أمام أمريكا فرصة ذهبية لكى تحل مكان القوى الاستعمارية الهرمة (بريطانيا وفرنسا) فى الشرق الأوسط ، وهكذا بدأ تقديم «مشروع ايزنهاور» لملء الفراغ فى المنطقة كما يزعمون ، بعد الانسحاب مباشرة .

وبالطبع كان عبدالناصر يدرك أهداف مشروع ايزنهاور ، لكنه فى ظنى كان في حرج للدور الذي لعبته أمريكا فى

تحقيق الانسحاب ، ولذلك آثر أن تبدأ الحملة على مشروع إيزنهاور فى صورة خطابات من الرأى العام إلى جريدة الشعب (وكان الاستاذ لطفى واكد رئيسا لتحريرها آنذاك) تدين المشروع . وبالطبع كانت جريدة المساء ضد المشروع وكتبت فيها مقالات عديدة تدينه وتفضح مراميه . لكن هذا لم يكن كافيا إذ أراد هو أن تعرف واشنطن أن الشعب كله ضد المشروع .

وهكذا اتصل بى الاستاذ لطفى واكد ذات صباح وطلب أن أزوره فى مكتبه بصحيفة الشعب . فلما ذهبت وجدت على صبرى حاضرا الجلسة ولو أنه انصرف قبل انتهاء اللقاء . وقال لى لطفى واكد : إنه يريد من قوى اليسار أن تغرق جريدة الشعب بخطابات ضد مشروع إيزنهاور وأنه يطلب منى المعونة فى هذا . وبالفعل اتصلت بالعديد من قوى اليسار راجيا منهم إرسال خطابات إلى جريدة الشعب بإدانة مشروع إيزنهاور . ونشرت الجريدة بالفعل العديد من الخطابات الأمر الذى لعب دورا فى قتل المشروع فى المهد .

انتصارات الحركة الوطنية العربية

وبالطبع لم تسكت واشنطن ، خصوصا بعد أن تعددت انتصارات الحركة الوطنية العربية ، فطرد الجنرال جلوب من الأردن وحل محله على أبو نوار كقائد للجيش وتحركت الأحزاب الوطنية فى الأردن لتحقيق حكم وطنى برئاسة سليمان النابلسى حيث كان الكثير من زعماء الأحزاب الوطنية وزراء فى تلك الحكومة ومنهم على سبيل المثال شفيق أرشيدات للتعليم وعبدالحليم النمر للداخلية .... إلخ .

على أن هذا التحول فى الأردن لم يظل طويلا إذ جرى انقلاب وزارى آخر وإن لم يكن انقلابا كاملا ، إذ ظل سليمان النابلسي وزيرا للخارجية بعد أن كان رئيسا للوزراء وظل عدد من وزرائه في مواقعهم ، بينما تولى الرئاسة أحد الموالين للملك حسين .

كانت هذه بداية التهديد التركى بغزو سوريا من الشمال ، وكان التهديد جديا ولعبت الأحزاب المعادية للقومية العربية دورا فى اهتزاز الأوضاع فى سوريا باغتيال العقيد عدنان

المالكى الذي كان يشغل منصبا حساسا فى الجيش السورى فيما أتذكر ، كل هذا كان فى سبتمبر سنه ١٩٥٧ .

واختار عبدالناصر أن يرسل وحدات من الجيش المصرى إلى اللاذقية واستقبلت تلك القوات استقبالا يفوق الوصف فى سوريا . وكانت هذه هى الظروف التى سافرت فيها إلى سوريا موفدا من صحيفة المساء .

ومع أهمية البحث عن الوضع فى سوريا بعد وصول القوات المصرية ، إلا أننى أدركت أهمية زيارة عمان أيضا حيث كان الصراع على أشده بين الأحزاب الوطنية فى الأردن ورجال الملك حسين . وهكذا سافرت إلي عمان لقضاء ثلاثة أيام فقط ونزلنا فى فندق نادى عمان وكان يقيم به عدد من الوزراء الأردنيين الذين يعيشون أصلا خارج العاصمة ، وهكذا توثقت صلتى بعدد منهم من بينهم شفيق أرشيدات وعبدالحليم النابلسى وسعيت لمقابلة سليمان النابلسى وفهم الأوضاع منه فوجدت منه عتابا على عبدالناصر لأنه يشتد فى رأيه في معاملة الملك حسين . لكن الجو كان مكهربا خصوصا

أن الأحزاب الوطنية قد قررت عقد مؤتمرها في نابلس وكان الملك حسين مصمما على إفشال المؤتمر ومنع المقيمين من أعضائه في عمان من السفر إلى نابلس ، إذ أنه حاصر مخارج عمان بقوات الشرطة .

وفي هذه الظروف حدث أغرب ما يمكن أن يحدث لصحفي خالي الذهن عن العمليات السرية . فقد اتصل بي الملحق العسكري المصري في الفندق وطلب مني أن أمر عليه في مكتبه فلما ذهبت إذ به يطلب مني أن أسافر إلى نابلس فورا ومعي اثنان من قيادة الحركة الوطنية في سيارة من سيارات السفارة . ولما سألته كيف ستسمح الشرطة الأردنية بخروجنا من عمان أجاب ببساطة : لا تحمل هم ذلك ، وطلبت منه أن أعود إلى الفندق لاحضار بعض الملابس معي إلى نابلس ، ولكنه رفض ثم سألني فجأة : هل تجيد إطلاق الرصاص ؟ فضحكت وقلت له إنني لم أمسك مسدسا طوال حياتي ، فقال : إذن يذهب معك فاروق القاضي لأنه يجيد إطلاق النار .

السفر إلى نابلس

وهكذا سافرنا فى ظلام الليل إلى القدس ومعنا اثنان من قادة الأحزاب : فائق وراد الذى أصبح أمينا عاما للحزب الشيوعى الأردنى بعد وفاة فؤاد نصار ، والآخر هو عيسى مدانات أحد قيادات الحزب ، وفى ظلام الليل لم أعرف من ركب معنا السيارة أنا وفاروق القاضى ، ولكن خطر فى بالى أنهما رجلان فى ملابس شبه نسائية ، وبالفعل عندما وصلت السيارة إلى نقطة التفتيش فى مخارج عمان أبرزنا للشرطى جواز سفرى وجواز سفر فاروق القاضى فأشار إلينا بالذهاب، ولم أصدق أننا بهذه السهولة اخترقنا نقاط حصار الملك حسين ، وكان المطلوب منا هو توصيل الرجلين إلي منزل القنصل المصرى فى القدس ، ووصلنا بالفعل إلي منزله حوالى الساعة الثالثة صباحا فوجدناه فى انتظارنا ورحب بنا غاية الترحيب ونمنا بضع ساعات فى غرفة الجلوس ، ثم قمت أنا وفاروق القاضى بالسفر وحدنا إلى نابلس مارين برام الله حيث استرحنا فى منزل كمال ناصر (الذى اغتاله

الاسرائيليون فى بيروت بعد ذلك بسنين طويلة) وتناولنا الغداء فى منزله ثم ودعناه إلى نابلس التى وصلناها فى المساء ، ووجدت أن المنظمين للمؤتمر قد رتبوا لى النزول فى منزل قدرى طوقان ، فاتجهت من فورى إلى قاعة المؤتمر فى نابلس حيث حضرت جلسته الختامية ، وقابلت د. عبدالرحمن شقير زعيم الجبهة الوطنية آنذاك وفؤاد نصار أمين عام الحزب الشيوعى الأردنى وفهمي السلفيتى وبقية قيادة الاحزاب الأردنية . وربما يتيح لى الزمن أن أتحدث عن متعة الإقامة فى بيت طوقان والاحاديث الجميلة التى دارت بينى وبين قدرى طوقان والشاعرة فدوى طوقان وحافظ طوقان ، وكيف ظللنا نتحاور فى الأمور المختلفة حتى الصباح تقريبا .

وكان من الواضح لى أن الملك حسين يستعد لضربة ردا على قرارات الاحزاب الوطنية ، وبالفعل فلم أكد أعود إلى عمان وأنزل فى نادى عمان حتى أعلن الملك حسين الأحكام العرفية وغير الوزارة بوزارة من الموالين له ، ومنع الخروج من نادى عمان بالأمر العسكرى .. وبذلت السفارة المصرية

جهودها للتصريح لى بمغادرة عمان . وبالفعل غادرت عمان إلى دمشق ، لكن عبدالرحمن الخميسى كان قد طير خبرا لجريدة الجمهورية باعتقالى فى عمان . ولم يكن الخبر بالطبع صحيحا ، وعندما وصلت إلى دمشق وعلمت بالموضوع وسألت الخميسى لماذا فعلت هذا ؟ أجاب وهو يضحك : «من باب الاحتياط ! .

التهديد التركى لسوريا

عندما وصلت إلى دمشق كانت أزمة التهديد التركى لسوريا فى أشدها ، وكانت القوات المصرية قد أخذت مواقعها فرأيت أن من المناسب أن أزور عددا من المدن السورية لاستكشاف الاستعدادات لمواجهة الغزو التركى المحتمل . وبالفعل ذهبت إلى المكتب الثاني (المخابرات) وقابلت عبدالحميد السراج (رئيسه آنذاك) وطلبت منه ترتيب التصريح لى بزيارة عدد من المواقع .. فى حمص واللاذقية وحلب .. إلخ .

فرحب بذلك وأصدر لى تصريحا بزيارة هذه الاماكن ومقابلة قادتها . وعندما علم بعض الصحفيين المصريين فى دمشق بذلك أبدوا رغبتهم فى أن يكونوا معى . كان معنا فى السيارة حسن شاه الهاكع وأحمد سعيد مراسل وكالة الشرق الأوسط فى دمشق وصحفية ثالثة من أخبار اليوم هى فاطمة سعيد . وبالفعل غادرنا دمشق فى الفجر في سيارة مكتوب على زجاجها الأمامى (صحافة مصرية) .

ومهما حاولت أن أصف حفاوة الشعب السورى بنا فلن أستطيع ، سوف أذكر قصة واحدة تشير إلى ذلك . عندما وصلنا إلي الميدان الرئيسى فى حمص أوقفنا بعض الأهالى وصمموا على أن ننزل لتناول الافطار فى منزل أحدهم : فلما أخبرناهم أننا تناولنا بعض الافطار فى السيارة ونحن فى الطريق وشكرناهم على كرمهم رفضوا الاستماع إلينا وحلف أحدهم بالطلاق أنه لابد من أن نتناول الافطار فى منزله وبالطبع رضخنا لهذا الكرم الحاتمى وأفطرنا مرة أخرى .

ثم ذهبنا بالسيارة إلى موقع القيادة حيث قابلنا الضباط السوريين والمصريين الذين رحبوا بنا ثم ذهبنا إلى مكتب محافظ حمص حيث واجهنا أعظم مفاجأة !

كان الزملاء المصريين معى قد اتفقوا على أن أتولى - باعتبارى أكبرهم سنا - تقديمهم إلى الجهات المختلفة التى نزورها . وقد قمت بهذا عند وصولنا لمكتب المحافظ ، فوجدت منه حفاوة شديدة بأحمد سعيد الذى معنا ظنا منه أنه أحمد سعيد المشرف على صوت العرب ، وأدركت بسرعة المشكلة وحاولت أن أشرح بهدوء للمحافظ أن الصحفى الذى معنا ليس أحمد سعيد صوت العرب . فإذ به ينفعل ويقول إن ما وصله من المكتب الثانى من اسماء لصحفيين مصريين من بينهم أحمد سعيد جعله يدعو شعب حمص للاجتماع فى الميدان الكبير بين الظهر للاستماع إلى خطاب من أحمد سعيد صوت العرب .

وبالفعل كانت الميكروفونات الثابتة والمتنقلة فى سيارات تدعو إلى اجتماع بعد الظهر لسماع أحمد سعيد . وأدركنا أننا فى ورطة ! ماذا نفعل ؟

حاولت أن أقنع أحمد سعيد الذى معنا فى الوفد أن يتكلم فرفض بإصرار وهدد بالعودة إلى دمشق فورا . قلت له : سوف أكتب لك الخطبة وما عليك إلا قراءتها فرفض . إنه شاب خجول لا يجيد الخطابة أمام الناس (وهو بالمناسبة أصبح وكيل التليفزيون المصرى بعد ذلك بسنين طويلة) .

وبالتالى فلم يكن هناك مفر من أن أتكلم أنا ، وأنا طبعا لست أحمد سعيد . ووقفنا فى شرفة المحافظة .. ممثلو الاحزاب الوطنية السورية ورجال الدين مسلمين ومسيحيين وبعض الضباط والصحفيين المصريين . وتكلم رجال سوريا أولا ثم عندما جاء الدور علينا لم تستمع الجماهير إلى اسم الشخص الذى سوف يتحدث لأن إطلاق النار من الأهالى ترحيبا قد غطى على كل شئ .

وبعد انتهاء الاحتفال نزلنا إلى السيارة لمغادرة حمص إلى اللاذقية فأصرت الجماهير السورية على إخراجى من السيارة للترحيب بى وتقبيلى ، وبعضهم لاشك قد أدرك أنى لست أحمد سعيد ، وإن كانت كلمتى قد سرتهم .

وقد اكتشفت بعد ذلك أن أهل حمص معروفون فى الشام بطيبتهم وسذاجتهم تماما كما نتحدث نحن عن أهل الشرقية الذين عزموا القطار أو من الصعيدى الذى اشترى الترام . عرفت ذلك من عفيف البرزى قائد الجيش السورى آنذاك ، وعندما أخذنى بعد ذلك فى سيارته أنا وخالد محيى الدين لزيارة حمص مرة أخرى ألفيناه يضحك مع المحافظ ويعيد قصة أهل حمص مرة أخرى .

بعد وصولنا إلى اللاذقية كنت متلهفا للوصول إلى حلب إذ كان واضحا لى أن أولى معارك الجيش التركى - لو قرر الهجوم فعلا - سوف تكون فى حلب .

وفى حلب وجدت الاستعدادات العسكرية تجرى على قدم وساق .. حفر خنادق وإقامة استحكامات ، وكانت قلعة حلب هى ، المكان الذى تطل منه على ما يجرى فى المدينة .

الغريب أننى وجدت من بين الضباط المصريين الذين كانوا يقومون بتدريب الميلشيات على أعمال المقاومة الضابط حسن صبرى الخولى (الذى أصبح فيما بعد المبعوث

الشخصى للرئيس عبدالناصر فى أعمال سياسية عربية كثيرة) .

وكنت أعرف حسن صبرى الخولى من العباسية حيث نشأنا سويا وظللت على علاقة به بعد الثورة ، لذا فرحت جدا بلقائه ، وقد دبر - ترحيبا بنا - زيارة للحدود السورية التركية عبر الجبال الشاهقة والطرق الضيقة .

* * *

بقى أن أذكر أننى كنت أول صحفى مصرى يزور قطاع غزة بعد جلاء الإسرائيليين عنها وعودة الإدارة المصرية (أعتقد أن ذلك تم فى يناير سنة ١٩٥٧ . حيث أن الاسرائيليين دمروا خط السكة الحديد الذي كان يصل بين غزة والقنطرة شرق فلم يكن هناك مفر من تأجير تاكسى فى القنطرة شرق يأخذنى إلى غزة ، وكان فى السيارة أناس آخرون ذاهبون إلي هناك وقبل وصولنا إلى غزة بنحو ربع الساعة فوجئنا برتل من السيارات يسد الطريق تماما . وعندما وصلنا إلى السد أدخل أحد الواقفين رأسه فى

سيارتنا وسأل عني وعرفت بعد ذلك أنهم يمثلون وفدا من شباب غزة عرفوا لا أدرى كيف أنى قادم إلى غزة وأنهم خرجوا للترحيب بى ، وقضيت أسبوعا فى غزة نزلت خلاله فى منزل جمال الصورانى وقابلت قيادات غزة الوطنية : حيدر عبدالشافي وجمال الصوراني ومعين بسيسو والبقية . وكنت أتناول الغداء يوميا فى أحد منازل أهل غزة ، وكان الغداء التقليدى هو المنسف والكنافة النابلسية .

والمنسف هو طبق كبير من الأرز والعيش واللحم ، يأكلونه بأيدهم على طريقة الاعراب . أما الكنافة النابلسية فهى من أجمل ما ذقت من الحلويات .

ومن نتائج هذه الزيارة أنى كتبت مقدمة ديوان معين بسيسو «مارد من السنابل» عن المقاومة التى نظمت ضد الاحتلال الاسرائيلى آنذاك وحتى اليوم لايزال الكثيرون من رجال غزة يزورونني فى القاهرة ونتذكر سويا أيام هذه الزيارة الجميلة التي أوقدت حبى لأهل غزة ونضالها .

انتخابات الدائرة السادسة

اتجهت الثورة إلى إجراءات انتخابية لأول مرة بعد انتهاء العدوان الثلاثى وهزيمة أهدافه . وتحدد شهر يوليو سنة ١٩٥٧ موعدا لإجراء الانتخابات . وبالطبع لم تكن هناك احزاب رسمية تتقدم لدخول هذه الانتخابات ، وإنما يتقدم الافراد الراغبون فى دخولها إلى لجنة يرأسها عبدالناصر وتضم فى عضويتها عبدالحكيم عامر وزكريا محيى الدين وكمال الدين حسين فيما أذكر .

ولقد تقدم إلي هذه اللجنة عدد من اليساريين المعروفين طالبين الترشيح فرفضتهم ، وتقدمت أنا بطلبى إلى اللجنة ، فوافقت اللجنة على ترشيحى لمجلس النواب . وكان سبب الموافقة فيما أعتقد هو موقفى فى بريطانيا عند تأميم القناة ، مدافعا عن التأميم فى اجتماعات بريطانية مختلفة كان آخرها الاجتماع الحاشد فى ميدان الطرف الأغر فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .

وقد اخترت أن أتقدم للدائرة السادسة (الوايلى) لأن أهلى جميعا من عائلة الأب أو الأم يقيمون في العباسية طوال

حياتهم . وقد نشأت فى العباسية وتعلمت فى مدارسها ، حتى كلية العلوم التى التحقت بها جامعيا كانت فى العباسية آنذاك .

وتحمست لترشيحى كل فصائل اليسار فى مصر باستثناء جماعة «حدتو» التى اختارت أن تؤيد في هذه الدائرة عاملا من عمال الترام (عبدالعزيز مصطفى) وقبل حينذاك أنهم قرروا تأييده لأنه عضو فى تنظيمهم ، بينما قال الشيخ مبارك بعد ذلك بسنوات طويلة فى ذكرياته أنهم أيدوا عبدالعزيز مصطفى لأنه عامل ، أى أنهم فضلوا العامل على المثقف وهى حجة سخيفة أمام أى فكر يسارى عاقل .

ولقد بلغ حماس المثقفين لترشيحى أن وقع عدد من كبار المثقفين بيانا يعلنون فيه تأييدى ويدعون الناس فى الدائرة السادسة إلي الوقوف معى ، ومن هؤلاء أتذكر أسماء إحسان عبدالقدوس رئيس تحرير روزاليوسف وكامل الشناوى رئيس تحرير الجمهورية وأحمد بهاء الدين الكاتب المعروف والدكتور لويس عوض ، ومع أننى لم أسع للحصول على توقيع نجيب

محفوظ إلا أننى عندما كنت أزور بعض المنازل فى منطقة «بين الجناين» حيث كان يسكن هو آنذاك أفاجأ بمن يخبرنى من السكان أن الأستاذ نجيب محفوظ قد زارهم بيتا بيتا مؤكدا عليهم أهمية انتخابى . وبالطبع كان لمثل هذا الخبر تأثير عظيم فى قلبى وتقدير أعظم فى نفسى ، مع أننى حتى ذلك الوقت لم نكن على صلة قريبة من الناحية الشخصية وإن كان قد أهدانى ثلاثيته عندما صدرت .

وتحمس أيضا لترشيحى الطلاب العرب فى الجامعات المصرية من فلسطينيين وأردنيين وسوريين ولبنانيين ويمنيين حتى أن اجتماعاتى الانتخابية لم تكن تخلو فى يوم من الأيام من حضورهم وهتافاتهم ، مما خلق جوا عربيا احتفاليا فى الدائرة السادسة .

موقف مضاد

وقد أصبح من الواضح لى بعد أيام من النشاط الجماهيرى فى الدائرة أن هناك قوى فى الدولة تقف ضد انتخابى ، اتضح هذا من مضايقات البوليس لى ورفض

التصريح بعقد الاجتماعات أو اشتراط عدم استعمال الميكروفونات ، حتى عندما بدأ زملائى فى جريدة المساء فى التبرع المالى لمساعدتى اتصل أحد المسئولين بخالد محيى الدين رئيس التحرير طالبا التوقف عن ذلك .

وعندما نظمت اجتماعا جماهيريا واسعا فى ميدان الوايلي قرب يوم الانتخابات أخذ بعض رجال الحكومة وزملاء من «حدتو» الذين كانوا يناصرون عبدالعزيز مصطفى يتصلون بالناس هاتفيا أو بالمقابلة يثنونهم عن حضور المؤتمر بحجة أن بعض الأشرار سوف يلقون «ماء نار» على وجوه من يحضرون ، ومع ذلك فقد حضر الكثيرون وكان يجلس معى على المنصة أحمد بهاء الدين ، ولويس عوض ود. عبدالمجيد أبو حجلة (من قيادات الأردن آنذاك) وآخرون لا أتذكرهم ، وامتلأ السرادق بآلاف من أهل الدائرة والزائرين . وابتدأ الاجتماع بكلمة جامعة منى ومن الآخرين . فلما أدرك البوليس أن مساعيهم باءت بالفشل هجموا بالقوة على السرادق وأمعنوا فى ضرب الناس لإخراجهم من السرادق ،

بل لقد حاولوا الوصول إلى بهدف الاعتداء أيضا لولا أن عددا من الزملاء أحاطوا بى وأخرجونى سالما من باب خلفى ، ولا أنسى فى هذا الصدد الدور الكبير الذي لعبته الفنانة العظيمة محسنة توفيق التى كانت آنذاك طالبة فى الثانوية العامة شديدة الحماس الانتخابى .

وقد تبين يوم الانتخاب أننى حصلت - رغم كل ماحدث - على أعلى أصوات ضمن تسعة كانوا مرشحين فى تلك الدائرة ، منهم الممثل سراج منير . لقد حصلت على أكثر من خمسة آلاف صوت ويلينى بعد ذلك عبدالعزيز مصطفى الذى حصل على ألفى صوت .

وحيث أن عدد الأصوات فى الدائرة كان حوالى ١٢ ألف صوت ، فقد كان لابد من الإعادة بينى وبين عبدالعزيز مصطفى .

ولما كانت وزارة الداخلية تعلم أن غالبية أهل الدائرة يؤيدوننى، فقد لجأت إلى استبدال صناديق الانتخاب بصناديق أخرى أدخلت إلى قسم الوايلى فى المساء باعتبارها أنها الصناديق الحقيقية .

وكنت قد اتفقت مع بعض أنصارى على مراقبة القسم ليلا خوفا من حدوث هذا وكانت النتيجة أن قبض عليهم وضربوا ضربا مبرحا ومنهم رشدى خليل رحمه الله .

وأعتقد أن أكبر خطأ وقعت فيه أننى لم أتمم على الصناديق كما يفعل بعض المرشحين ، خصوصا أن بعض أنصارى طردوا من اللجان الفرعية خلال الانتخابات .

ومن المصادفات الغريبة أننى بعد هذه الأحداث بسنوات عدة وكنت معتقلا آنذاك بسجن الواحات ، قابلت بالصدفة رجلا كان مشتركا فى عملية تبديل الصناديق وحكى لى تفاصيل القصة وقال لى : إنه كان آسفا على ذلك ولكنها كانت تعليمات لابد من تنفيذها .

لقد كنت ذاهبا من سجن الواحات إلى مستشفى بأسيوط للعلاج ، وحضرت سيارة بها ضابط ومخبر وسائق طبعا . وكان الضابط يجلس إلى جانب السائق بينما جلست أنا والمخبر فى السيارة البوكس فى الخلف وفى الطريق بدأت الدردشة العادية مع المخبر إلى أن سألنى إن كنت أذكره .

قلت : لا أبدا ، فضحك وقال : إنه كان فى قسم الوايلى عام ١٩٥٧ وحكى لى قصة الصناديق التى استبدلت فى الدائرة السادسة لإسقاطى وإنجاح عبدالعزيز مصطفى .

أتذكر أنه فى اليوم الذى هجم فيه البوليس على الاجتماع الجماهيرى قبل الانتخابات بأيام قليلة ذهبت بعد الحادث إلى جريدة الجمهورية وقابلت كامل الشناوى - (وكان صديقا حميما لى وواحدا من أنصارى) وحكيت له ما حدث . وبينما نحن نتحدث فى الموضوع دخل إلى الغرفة أنور السادات (وكان آنذاك رئيس مجلس إدارة الجمهورية) وطلب منى كامل الشناوى أن أعيد القصة أمام أنور السادات ففعلت ، فقال أنور السادات بعد برهة : أكتب تقريرا بما حدث وسأرفعه إلي الرئيس جمال عبدالناصر وأعطانى كامل الشناوى بعض الأوراق فأخذت فى كتابة القصة كاملة وأنا فى حالة انفعال كامل .

ولا أدرى حتى اليوم إن كان ما كتبته قد وصل عبدالناصر حقا ! وكل ما أعرفه ما حكاه خالد محيى الدين لى بعد ذلك

عند لقائه بعبد الناصر من أنه عاتبه على الأقوال السائرة آنذاك بتزوير انتخابات الدائرة السادسة ، لكن خالد محيي الدين تمسك بصحة هذه الأقوال وقدم لعبدالناصر أمثلة علىٰ هذا التزوير . فمثلا فى إحدى الشياخات الفرعية كان هناك من أقاربى حوالى ١٢ شخصا ذهبوا جميعا لانتخابى فى الاعادة بينما النتائج فى هذه الشياخة تقول أنى حصلت على ٤ أصوات فقط ! .

المهم أن هذه الانتخابات وما حدث فيها قد خلقت جوا من الريبة بينى وبين عبدالناصر ، حتى أنه أخذ يستمع لبعض القيادات البعثية ، وخصوصا ميشيل عفلق الذى لم يكن يحبنى وكنت أبادله نفس المشاعر .

وحدث أن كتبت مقالا فى صحيفة المساء استخدمت فيه تعبير (الحركة الوطنية العربية) فإذا بميشيل عفلق يقنع عبدالناصر أننى معاد للقومية العربية ، واتصل عبدالناصر بخالد محيى الدين مهددا باعتقالى . وقد دافع خالد عنّى

دفاعا مجيدا ، وكنت بالمصادفة فى غرفته عندما حدث اتصال عبدالناصر به . وفى النهاية أمر أن أتوقف عن الكتابة .

واتفق خالد معى على أن أستمر فى الكتابة دون توقيع ، فكنت أكتب المقال بتوقيع «مراقب» ، ومن يعود إلى صحيفة المساء عام ١٩٥٨ سوف يرى العديد من المقالات بهذا التوقيع.

واستمر الحال على هذا المنوال حتى حملة أول يناير سنة ١٩٥٩ الشهيرة التى تم فيها اعتقال المئات من اليساريين وكنت منهم ، وعندما فتشوا منزلى لم يجدوا فيه غير بيان كنا نجمع عليه التوقيعات يطالب الرئيس عبدالناصر بالديمقراطية السياسية .

موقف من المرحلة الناصرية

قال صديقى وزميلى فى جامعة عين شمس فى يوم من أيام عام ١٩٨٤ ، وكان يداوم على قراءة مقالاتى فى صحيفة «الأهالى» بشكل منتظم :

«إنك تحيرنى بدفاعك المجيد عن المرحلة الناصرية وعن عبدالناصر فى مقالاتك بصحيفة الأهالى على أننى أعرف من ملازمتى لك طوال هذه السنين منذ عينا نحن الاثنين معيدين بالجامعة حتى اليوم انك لم تلق عنتا فى حياتك مثل ما لقيته خلال المرحلة الناصرية فأنت فصلت من جامعة القاهرة عام ١٩٥٤ بقرار من مجلس قيادة الثورة وأنت اعتقلت ضمن مئات آخرين من الشيوعيين اليساريين فى أول يناير ١٩٥٩ حتى ابريل ١٩٦٤ .

ولاقيت مع زملائك خلال الاعتقال مالقيتموه من عنت وتعذيب مسجل فى كتابك «رسائل الحب والحزن والثورة» وقدمت أنت وستون من رفاقك للمحاكمة أمام مجلس عسكرى بالاسكندرية فى نوفمبر ١٩٥٩ ، ومع أن هذا المجلس العسكرى أصدر حكما ببراءتك أنت وصديقك محمود أمين

العالم إلا إنكما بقيتما فى معتقل الواحات الخارجة إلى أن افرج عن الجميع فى ابريل ١٩٦٤ ومع ذلك فلم أقرأ دفاعا مجيدا عن عبدالناصر ومرحلته كما قرأته في مقالاتك بصحيفة الأهالى فهل تسمح لى بتفسير هذه الفزورة ؟» .

قلت :

ليس فى الأمر فزورة ولا يحزنون فمعيارى فى الحكم على المرحلة الناصرية لم يقم أساسا بما حدث لى شخصيا ، وانما بما حدث لشعب مصر خلال تلك الفترة ، وأى شخص قادر على الحكم الموضوعى لابد أنه سيدرك أنه فى حساب المكاسب والخسائر ، الايجابيات والسلبيات فإن المرحلة الناصرية قد حققت للشعب المصرى الكثير من المكاسب المهمة التى كنا نطالب ببعضها قبل الثورة .. الاصلاح الزراعى ، القطاع العام ، وبناء الصناعة الوطنية على نطاق واسع لأول مرة ، إنهاء الاحتلال البريطانى ، تأميم قناة السويس ، التوسع فى مجانية التعليم فى مراحله المختلفة ، تحسين صحة الشعب ومستوى معيشته مقارنة بما قبل

الثورة، بناء السد العالى ، وقوف مصر الدولة إلى جانب نضال الشعوب العربية فى نضالها ضد السيطرة الأجنبية ودعم ثوراتها ، بل ودعم ثورات أفريقية .. إلخ وربما إذا اردت تعداد كل الأعمال العظيمة التى صنعها عبدالناصر خلال حكمه أن أكتب مقالا كاملا عن هذا الموضوع .

شئ واحد وأساسى كان محل خلافى مع المرحلة الناصرية وقادتها .. هو غياب الديمقراطية السياسية الحقيقية .. فقد كنت ومازلت أعتقد أن تلك هى نقطة الضعف الأساسية فى المرحلة الناصرية ، وهى التى غطت على السلبيات الأخرى التى وقعت آنذاك وكان هناك حرص على التستر عليها وهذه المسألة هى فى رأيى المسئولة عن التستر على الفساد داخل الجيش آنذاك ، وهو الفساد فى القيادات الذى اتضحت أبعاده عند وقوع كارثة سنة ١٩٦٧ ، وهى أيضا المسئولة عن هشاشة التنظيمات الشعبية التى بناها عبدالناصر وامتلأت مع الأسف بالعناصر

الانتــهـازية التى تلعب دورا مــهــمــا اليـوم فى الردة التى صاحبت نظامى السادات ومبارك .

ولقد أخذت هذه القضـية فى نظرى بعدا حـيويا إثر إبرام الوحـدة المصـرية السـورية فى فـبراير سنة ١٩٥٨ وعندمـا تم القــبض علـى فى أول ينـاير سنـة ١٩٥٩ كـــان من ضـــمن المضـبـوطات بيـان كنا أعـددناه عن قـضـيـة الديمقـراطيـة السـياسـية وأهمـيتـها كدعاية أساسـية للوحـدة ، وكـان من الموقعين على هذا البيان أنور عبدالملك وسعد التائه ومـحمـود العالم وكاتب هذه السطور وآخرون لا أذكر اليوم اسماءهم .. والغريب أنه خلال تحقيق النيابة معى وخلال المحاكمة أمام المجلس العسكرى كان هناك حـرص من الجانبين على تجنب السؤال عن هذا البيان ، بينما كنت أنا حـريصا على الاشارة إليه فى كل مناسبة .

هذا اذن الموقف على حقيقته ، أما دفاعى عن عبدالناصر وحكمــه فــقــد وقع فـى زمن الردة الشــاملة ، زمن نظامـى

السادات ومبارك ، عندما سحبت بالتدريج كل المكاسب العديدة التي حققها شعب مصر خلال حكم عبدالناصر ، وعندما التحق كثيرون ممن كانوا في التنظيم الطليعي بركاب الردة وخيانة مصالح هذا الشعب من أجل الوجاهة والمال والسلطان .

أكتب هذه الكلمة لأقول : إن عهد عبدالناصر لم يخل من سلبيات معظمها هو ثمرة غياب ديمقراطية سياسية حقيقية ، ديمقراطية قادرة على تعبئة الجماهير في عملية ابداء الرأي واتخاذ القرار (وهذا بالمناسبة هو المطعن القاتل الذي دمر الانظمة الاشتراكية في روسيا وشرق أوروبا) ، بل لقد وقعت جرائم في عهد عبدالناصر مثل إعدام خميس والبقرى في كفر الدوار بعد محاكمة غير عادلة .

لكن الحكم العام على المرحلة الناصرية هو في رأيي إيجابي لأنه حقق للشعب العديد من المكاسب واكسب مصر احترام العالم، ومن المهم ابراز هذا الجانب الايجابي في زمن

الردة زمن سلب الشعب كل مكاسبه فى المرحلة الناصرية زمن الخضوع للأجنبى وبيع القطاع العام ، زمن «السلام» الزائف مع الصهاينة» ولأنه سلام إذعان ، فلا يمكن أن يكتب له الدوام !

باقة ورد لاحسان عبدالقدوس

الاستنارة والشجاعة

أحسست وأنا أمشي في جنازة الأديب الراحل احسان عبدالقدوس أنني أجر ورائي ذكريات ٥٠ عاما من الصبا والشباب والكهولة ، ذكريات جميلة حقا لكنها بدت وكأنها تختصر أحداث تلك الحقبة الطويلة من تاريخ مصر .

كنت واحسان في مدرسة ثانوية واحدة هي مدرسة فؤاد الأول الثانوية (الحسينية الآن) بالعباسية ، وكنت في السنة الأولى بينما هو في السنة الخامسة . وكنا نضرب عن الدراسة ونتظاهر في شارع العباسية احتجاجا على تصريحات وزير خارجية بريطانيا «صمويل هور» .

كان احسان في مقدمة المظاهرة ، بينما كنت أنا في الثانية عشرة من عمري في المؤخرة ، وانتهت المظاهرة بالتصادم مع البوليس ونجا احسان ، بينما وقعت أنا في ايديهم وقضيت في حجز قسم شرطة الوايلي يوما واحدا حتى أفرج عني .

لم يكن احسان يعرفني شخصيا ، لكنى فوجئت بعد ثورة يوليو بعدة شهور يذكرنى ، وهو يستقبلنى فى مكتبه بروز اليوسف بتلك الواقعة التى كان قد انقضى عليها ١٧ عاما .

ولقد تميز احسان بخصلتين مازلت أذكرهما له ، وأحسبهما من أجمل شمائله على الرغم من الخلافات السياسية والأدبية التى فصلت بيننا ، وإن لم تؤثر على صداقتنا ... هاتان الخصلتان هما سعة أفقه وشجاعته .

بعد ثورة يوليو بأسابيع عدت من البعثة فى بريطانيا ، وعينت مدرسا بكلية العلوم بجامعة القاهرة ، وبدأت أكتب اسبوعيا بصفحة الأدب بصحيفة المصرى .

وأذكر أننى كتبت مقالا طويلا تعرضت فيه بالنقد الحاد لقصص إحسان وإذ ببعض الاصدقاء من العاملين معه يتصلون بى ، ويقولون إنه يريد أن يرانى .

وبالفعل ذهبت إلى لقائه فى مكتبه ، فإذا به يعرض على أن أكون من كتاب روزاليوسف

وبدأت بالكتابة فيها كل اسبوع ، ثم قمت بتحرير باب «أدب» بعد انتقال فتحى غانم لأخبار اليوم .

وظل هذا هو الوضع حتى نهايات عام ١٩٥٤ - عندما صدر قرار مجلس قيادة الثورة بفصلى من الجامعة ضمن أخرين ، وذلك بسبب موقف اليسار من الثورة وخلافها معها حول قضية الديمقراطية .

وعندما عرضت على وظيفة مدرس بجامعة لندن قبلتها مضطرا لأننى عشت فى القاهرة شهورا بلا عمل . ومن لندن ظللت أرسل بعض المقالات الثقافية لاحسان فيقوم بنشرها رغم علمه أننى من المغضوب عليهم .

ثم تجلت شجاعته حقا فى مقال نشره عنى فى روزاليوسف عام ١٩٥٥ بعنوان «الرجل الذى سرقه الانجليز» قال فيه أشياء طيبة كثيرة عنى لا أستطيع ذكرها هنا . ثم دعا فى ختام المقال إلى إعادتى لمصر ، وإلى جامعة القاهرة .

بعد أيام من نشر المقال ، كان احسان فى طريقه إلى باندونج فى صحبة الزعيم جمال عبدالناصر فسأله عن المقال

وعنى ، وقام احسان بشرح وجهة نظره فى اسهاب - لكن عبدالناصر ختم الحديث بقوله: «إن الشيوعيين يضحكون عليك ويستخدمونك يا احسان» !

تذكرت هذه القصة وأنا أسير يوم الجمعة الماضى حزينا فى جنازته ضمن ذكريات عديدة جمعتنى بالصديق الراحل - فاذا بالدموع تنساب ولا أستطيع كتمانها .

شهادة للتاريخ

التقيت بها بالصدفة على مائدة العشاء عند بعض الأصدقاء في الاسبوع الماضي ، ولم تكن تعرف عنى غير أننى أستاذ بالجامعة ، ولم أكن أعرف عنها غير أنها انجليزية مهتمة بقضايا التعليم وانها ليست بعيدة عن نشاط المجلس البريطانى الثقافى فى القاهرة .

ولأن مكانى على المائدة جاء مجاورا لمكانها ، ولأن أدب الحوار يقتضى نوعا من الحديث والحوار فقد سألتها ان كانت مقيمة بمصر منذ مدة طويلة ؟ .. قالت : أربع سنوات . قلت : وهل تروق لك الحياة بمصر ؟ قالت : نعم باستثناء المتاعب المعروفة ، المواصلات ، الضوضاء ، المجارى .. إلخ لكنى أحب هذا الشعب الكريم المضياف والصبور أيضا ..

ومضى الحديث على هذا النحو التقليدى حتى فاجأتنى بسؤال أطار النعاس من عيوني والملل من نفسي .

قالت : قل لى بالله كيف تسمح انظمتكم التعليمية بدخول الحاصلين على الثانوية البريطانية «المستوى العادى» الجامعات المصرية مع أن هذه الشهادة فى بلادنا لا

تؤهـل الحاصل عليها إلا للخـروج من المدرسة الثانـوية إلى العمل ، وان الطالب فى بريطانيا عليه أن يمضى عامين في الدراسة قبل أن تقبله الجامعة وكيف تقبل جامعاتكم طلبة لم يدرسوا لغتكم القوميـة ، اللغـة العربيـة ، فى السنتين الثـانيـة والثـالثـة الثـانوية . إن الوضع الذى أراه هنا هو أن أعـدادا هـائلة مـتـزايدة كل عـام من الطلبـة المصـريين بعـد نجـاحهم فـى امتـحـان السنة الأولى الثـانوية فى مـدارسـهم المصرية يتقدمون لامتحان ، المجلس البريطانى فى الشهادة الثانوية البريطانية ، وهى لا تتضمن بالطبـع امتحـانا فى اللغة العربيـة ، ويحصلون عليها خـلال عام وبعدها يدخلون جامعاتكم ، فكأنهم بذلك قد وفروا عاما كاملا من دراستهم ووفروا مشقة دراسة اللغة العربية سنتين كاملتين ، وجامعاتكم تقبلهم على ذلك ! هل يمكن أن تفسر لى هذا اللغز ؟ وكيف يتسق كل هذا مع مبدأ تكافؤ الفرص الذى تتحدثون عنه كثيرا ؟! .

قلت : هذا سؤال جدير بأن توجهيه إلى وزير التعليم فى مصر، وأمين المجلس الأعلى للجامعات ، ورؤساء الجامعات المصرية ، الذين قبلوا على أنفسهم هذا الوضع المهين لشهادة الثانوية المصرية ، والذين رضوا عن طيب خاطر بسياسة القفز من فوق القواعد الديمقراطية لدخول الجامعة مجاملة لبعض الفئات القادرة في مصر وصاحبة الصوت العالى. ، ولقد فات عليك أن تذكرى أن طالب الثانوية البريطانية المصرى قد وفر على نفسه أيضا مشقة دراسة الرياضيات فى المناهج المصرية لمدة عامين ، لأنك ، كما لا شك تعرفين ، أن مناهج الرياضيات فى الثانوية البريطانية أدنى كثيرا من مناهج مصر» ..

قالت : نعم أعلم ذلك ، وهذا أمر طبيعى لأن شهادتنا هذه لا تؤهل أحدا لدخول الجامعة ، ولو حاول أحد طلابكم ، من الحاصلين على الثانوية البريطانية ، التقدم إلى جامعة بريطانية لرفض طلبه طبعا . وبالمناسبة لم أفهم ، أيضا ، كيف قبلت السيدة جيهان السادات أصلا كطالبة فى قسم

اللغة العربية ، فى كلية الآداب ، مع انها لم تؤد امتحانها فى مناهج اللغة العربية للمرحلة الثانوية ؟ ألم تتقدم إلى جامعة القاهرة بشهادة الثانوية البريطانية ؟»

قلت – وأنا ازداد خجلا : هذا سؤال جدير أن يوجه لرئيس قسم اللغة العربية فى كلية الآداب ولعميد كلية الآداب ورئيس جامعة القاهرة آنذاك ؟

وسألتها عن عدد الطلاب المصريين المتقدمين هذا العام للثانوية البريطانية ، فقالت على الفور : لدى المجلس البريطانى موعدان للجلوس إلي هذا الامتحان .. يناير ويونيه ، والعدد المتقدم من الطلاب المصريين فى كل موعد يزيد على الألفين ! ، فكم يكون العدد بعد عدة سنوات ؟

* * *

ولأن العشاء انتهى بسرعة فقد حمدت الله على انصرافنا دون أن أضطر إلى اجابة السيدة الانجليزية على هذه الاسئلة المحرجة. لكننى فكرت وأنا عائد إلى منزلى أن هذه قضية جديرة أن تفتح على صفحات الصحف مرات

ومـرات ، وأنه ، رغم أنه قـد سـبق لى أن أثـرت الموضـوع على صـفـحـات «الاهالى» منذ عـدة شـهـور ، فـإنه من الضـرورة القـاء أضـواء جـديدة علي الظروف التى ظهـرت فـيـهـا هذه «الموضــة» الجديدة التى يقبل عليها باعداد مـتـزايدة أبنـاء القـادرين والاثرياء لدخول الجامعة من الباب الخلفى!

إننى اعتقد أن هذا الباب الخلفى قد فتح على مصراعيه فى عام ١٩٧٤ عندما كان ابن رئيس الجمهورية السابق طالبا فى الثـانوية العـامـة . كنت آنذاك وثيـق الصـلة بوزارة التربيـة والتعليـم ، فقـد كنت رئيسا للجـنة القومية لتعليم الرياضـيـات فى التـعليم العـام، وكنت مـسـتـشـارا للوزارة ومـشـرفـا على تدريب المدرسين فى الرياضـيات المعاصـرة ، وكنت أزور المدارس الثـانوية التى طبـقت المناهج الجـديدة ، وأناقـش نظار المدارس فى توزيع جـدول الرياضـيـات على المدرسـين وفى اخـتـيـار المدرسـين أنفـسـهم للتـدريس فى الفصول المختلفة ، واحضر كثيرا من الحصص بنفسى .

ومن بين هذه المدارس التى كنت أزورها آنذاك مـدرسـة

بورسعيد بالزمالك ، حيث كان جمال السادات ، وكان معروفا بالمدرسة أنه يستحيل عليه أن ينجح فى امتحان الثانوية العامة المصرية (القسم العلمى) ، فما بالك بالحصول على مجموع يدخله كلية مثل كلية الهندسة !

فى هذا الوقت ، بدأت صحف الحكومة فجأة تتحدث عن صعوبة مناهج الثانوية العامة ، وإلى هنا فإن الامر طبيعى إلى حد ما . لكن الاغرب من ذلك أن الموضوع دخل مجلس الوزراء .. نعم أخذ مجلس الوزراء يناقش صعوبة مناهج الثانوية العامة ، وكان د. عبدالقادر حاتم يرأس المجلس ، وقرر تشكيل لجنة وزارية لبحث الموضوع ! إن الشكوى من مناهج التعليم العام أمر طبيعى والاراء بين التربويين تتفاوت حول هذا الموضوع ، لكن الطبيعى أن يدور الجدل حول هذا فى أروقة الوزارة المختصة .. وزارة التعليم . أما أن يجد مجلس الوزراء الوقت لمناقشة مناهج الثانوية العامة بالذات وفى عام ١٩٧٤ بالذات عندما كان جمال السادات طالبا بالثانوية العامة . فلابد أنه كان مصادفة سعيدة !

وقـد شكلت اللجنة الوزارية لبـحث هذا الموضـوع من المرحـوم د. حسن الشـريف وزير التـأمـينات ، ود. مـحـمـود عبدالحافظ وزير الاسكان ، والدكتور كامل ليلة وزير التعليم السـابق ، والمرحـوم الاستـاذ على عبـدالرازق وزير التـربية والتـعليم . واسـتـدعيت أنا لحـضـور اجـتـمـاعـات اللجنة مع أسـاتذة اخـرين من الجـامـعـات ومن رجـال الوزارة في مكتب وزير التـأمينات . يشـهد على هذه الواقـعـة كثيرون من رجال الجامعات الأحياء منهم : د. صبحى عبدالحكيم رئيس مجلس الشـورى الحـالى والذى كان يمثل مادة الجـغـرافـيا ، والدكتـور مـحـمـد أنيس والذى كـان يمثل مـادة التـاريخ ، والدكـتـور مـحـمـد النادى الذي كـان يمثل مـادة الطبـيـعـة . ولقـد قلت للصديق المرحوم د. حسن الشريف ساخرا في التليفون : «ان العلاقة بين التأمينات ومناهج الثانوية العامة لابد وثيقة ، والا ما عقدتم الاجتماع فى وزارة التأمينات» :

ولقـد كـان واضـحـا أن الاسـتـاذ على عبـدالرازق لم يكن راضيا عن هذا العمل ، ولذلك لم يحضـر الاجـتمـاع وحضر

الدكتور كامل ليلة الاجتماع قرب نهايته ، ودارت المناقشة أساسا بين المستشارين وبين وزيرى التأمينات والاسكان . وكان واضحا منذ أول الاجتماع ، ان مادة الرياضيات هى المستهدفة بالاختصار الشديد ، ولذا دارت مناقشات حادة بينى وبين وزير الاسكان طالت لأكثر من ساعة ، وصممت على موقفى برفضى طلب وزير الاسكان بالغاء كتاب التفاضل والتكامل من مناهج الثانوية العامة. والتفت دكتور محمود عبدالحافظ إلى المرحوم دكتور حسن الشريف وقال بالانجليزية بصوت مسموع «لا فائدة .. لا يوجد طريق للتفاهم» .

وأرسل لى أستاذ جامعى تحت منضدة الاجتماع ، ورقة سلمها لى دكتور صبحى عبدالحكيم - الذى كان يجلس بجوارى، يقول فيها «كفي .. انك لن تقنع هؤلاء الناس بشئ أبدا » .

وانفض الاجتماع وأنا على موقفى ورجال الوزارة من أساتذة الرياضيات متضامنون معى في هذا الموقف مقتنعون بالاسباب التى ابديتها فى رفض طلبات وزير الاسكان .

كان هذا فيما أذكر فى يناير سنة ١٩٧٤ ، وبعدها نسيت الموضوع ، وانشغلت بأعمال كثيرة منها وضع امتحان الثانوية العامة لدور يونيو سنة ١٩٧٤ فى الرياضيات ، ومنها الاعداد لسفرى إلى بريطانيا لمدة ستة أشهر - من مايو إلى أكتوبر - كأستاذ زائر فى احدى جامعات بريطانيا .. حتى كان يوم جمعة خلال شهر مارس سنة ١٩٧٤ خرجت فيه مع أسرتى لقضاء النهار فى «برج المنوفية» وتناول الغداء هناك .

وعندما عدنا بعد الظهر أخبرنا الجيران أن سيارة من رئاسة الجمهورية جاءت تسأل عنى مرتين ، وان رجلا بالسيارة ترك لدى الجيران ورقة لتسليمها لى . وعندما فتحت الورقة وجدت أنها من مكتب الرئيس ومكتوب عليها بالحبر «رجاء الاتصال بأرقام التليفونات .... ، ثم توقيع غير واضح . وأدرت قرص التليفون بأحد هذه الأرقام وقلت : «أنا فلان .... ماذا تريدون منى ؟ ، وعرفت أن الذى يرد على التليفون هو رجل قال عن نفسه انه العقيد رؤوف ،

وانه يريد أن يعـرف مـتى يرسلـون سـيـارة من الرئاسـة لحضـــورى إلى منزل الرئيس لأن جـمــال لديه أسئلة فـى الرياضيات يريد أن يسألنى فيها ؟

وامتـلأت نفسى بالغضب وقلت لمحدثنى وأنا أحـاول أن أضبط أعصابى ، إنك لاشك لا تعلم أن استاذ الجامعة يحال إلى مجلس تأديب إذا أعطى دروسا خاصة» .

قال فى برود : «لا أعرف» .

وقلت : «انا واثق من ذلك .. وواثق أيضــا أنك لا تعـرف أننى واضع امتحان الثانوية العامة ! .

قال فى برود أيضـا : «لا .. لا أعرف ، وأعطيته اسم احد المدرســين الأوائل بالمدارس الثـانـوية ليـتـصـلوا به حـتــى يجيب عن اسئلة جمــال السادات فى الرياضـيات ، ووضعت السماعة .

لكنى بقيت فى ثورة غضب طوال الليل ، وحاولت المرحومة زوجتى أن تهدئ من غضبى ، وفى الصبـاح ذهبت إلى وزير

التعليم .. المرحوم الاستاذ على عبدالرازق لاخبره بما حدث ولاعرف منه إن كان على علم بهذه المهزلة أم لا .

لقد كنت ومازلت أكن لهذا الرجل محبة ، لسابق معرفتى به ، ولم أكن أتصور أن يكون له صدا بهذا الموضوع . ولقد أثنى الرجل على موقفى ، لكنى وجدته يحاول أن يقنعنى بالذهاب مرة واحدة إلى منزل السادات لتقييم «الولد» كما قال : فأمه منزعجة بسبب حالته وهى تخشى عليه من الرسوب فى الامتحان ولا تعرف ماذا تصنع !

وفهمت من الوزير أنها كثيرة الاتصال به فى هذا الموضوع ، وأنه يشعر بحرج شديد .

قلت له :

«لماذا لا ترسل لهم أحد مفتشى الوزارة أو مدرسيها الأوائل لتقييم الولد ، ان كانت المسألة مجرد تقييم . إننى أريد أن أعرف من الذى أعطاهم اسمى بالذات» .

قال الوزير :

«ان اسمك موجود على الكتب ، والكل يعرف انك تزور

المدارس كثيرا لمتابعة مشـروع الرياضيات المعاصرة الذى بدأ مع اليونسكو.

وصممت على رفض طلب الوزير وقد حاول أن يستخدم معي حججا أخرى ، فقد قال :

«إن السادات خارج من حرب اكتوبر ، وليس لديه وقت للاشراف على الولد» .

وضحكت ، وقلت :

«هل تريد أن تقنعنى أن السادات لو لم يكن خارجا من حرب اكتوبر لساعد ابنه فى الرياضيات ؟ انني بصراحة لا أتوقع من وزير التعليم أن يطلب مني هذا الطلب» .

وانصرفت من مكتب الوزير حزينا وتملكنى الشعور بأن ما حدث بالأمس ليس إلا المحاولة الثانية ، بعد فشل المحاولة الأولى فى اختصار المناهج بشدة على يد اللجنة الوزارية ، وكان أشد ما أحزننى هو الشعور بأن مصر تدار كعزبة .. وعلى الخولي والتملي والانفار أن يكونوا فى خدمات السيد صاحب العزبة ، وان الحديث عن سيادة القانون هو عبث فى عبث .

ولم يمض على هذه الواقعة أكثر من شهر حتى حدث تعديل وزارى ! وخرج المرحوم على عبدالرازق من وزارة التربية والتعليم ، وعين دكتور مصطفى كمال حلمى مكانه فى ابريل سنة ١٩٧٤ ، وذهبت إليه مهنئا كصديق قديم - لكننى حكيت له القصة بأكملها وسألته إن كان يعرفها فقال إن هذه أول مرة يسمع بها ، قلت على الفور :

«على أى حال لقد رويت تلك القصة حتى لا يحاولون معك».

كان هذا فى ابريل سنة ١٩٧٤ ولم يبق على امتحان الثانوية العامة المصرية غير شهرين . وقد عرفت بعد ذلك أن شخصا ما تقدم لهم بالحل العبقرى .. وهو اخراج ابن السادات من امتحان الثانوية العامة المصرى ، وادخاله امتحان الثانوية الانجليزية فى يونيو ، حيث لا يوجد امتحان فى اللغة العربية ، وحيث امتحان الرياضيات هو امتحان فى الضرب والقسمة !

أما من هو الشخص لم أعرف .. ومنذ ذلك الحين اكتشف ابناء القادرين وتلاميذ المدارس الخاصة ما اكتشفه ابن السادات عام ١٩٧٤ ، وهو ان هناك بابا خلفيا لدخول الجامعات المصرية حتي ولو كنت لا تعرف أى شئ عن لغتك القومية ، كما لا تعرف شيئا فى الرياضيات ، وهذا الباب الخلفى يدعى «الثانوية الانجليزية» .

فمتى يتحرك وزير التعليم لتصحيح هذه الأوضاع المشينة..

الباب الثانى

شخصيات فى حياتى

ذكريات مع طه حسين

رغم أننى لم أكن من تلاميذ طه حسين وحوارييه ، رغم أن عدد مرات لقائى معه لم تزد على اصابع اليد الواحدة ، إلا أننى أحسست منذ شهور برغبة عارمة فى أن اكتب عنه فى هذه الذكرى الأخيرة . فطه حسين واحد من القلائل من جيل كبار كتاب ومفكرى عصر المحدثين الذين اختلفت معهم فكريا وإن كنت احببتهم ، وظل هذا الحب والاعزاز كامنا فى القلب والضلوع على طوال السنين .

ولقد نشأت وترعرعت فى ظل عائلة بسيطة ذات ميول وفدية ، وتفتحت براعم ذهنى فى الثلاثينات على اسم طه حسين كأسطورة شبه مقدسة ، لا لأنه صاحب دعوة «التعليم كالماء والهواء» فحسب ، ولا لأنه صاحب «الأيام» التى هزت وجدان صباى فحسب ، ولا لأنه كان كاتبا وفديا كبيرا فحسب ، وإنما لأنه فوق كل شىء مثقف مصرى صادق الوعد لا يفصل بين تفكيره ومواقفه العملية ، مستعد للتضحية من أجل عقيدته الديمقراطية ودفاعه عن الشعب .

فقد كان طه حسين العدو اللدود لدكتاتور مصر في الثلاثينات اسماعيل صدقي ، فصله من منصبه كعميد لكلية الآداب فلم يتراجع العميد عن موقفه .

كان طه حسين مفكرا مناضلا عندما تراجع آخرون من المثقفين وآثروا السلامة !

ولعل من الأسباب التى دعتنى إلى الكتابة عنه هذا العام أننى قرأت منذ شهور كتاب زوجته السيدة سوزان طه حسين عنه بعنوان «معك» ولقد هزنى الكتاب بشدة ، هزنى عاطفيا لجمال المشاعر الإنسانية التى عبرت فيه السيدة الفاضلة - وبأسلوب شاعرى أنيق - عن عواطفها تجاه زوجها المفكر الكبير ، لكن الكتاب افزعنى فى نفس الوقت !

فمن يقرأه قد يخرج بانطباع أن طه حسين كان مفكرا فرنسيا وليس مصريا من صميم ريف مصر وطينة فقرائها . ولست استطيع أن الومها كثيرا فى ذلك لأنها تكتب عما رأته من طه حسين فى داخل منزلهما ورحلاتهما الصيفية فى ربوع أوروبا ، ولقاءاته مع المفكرين الغربيين ، كما أنها

بطبيعة كونها فرنسية الأصل كانت معزولة عن كثير مما يجرى خارج المنزل من طه حسين وله .

أن الذين كتبوا عن طه حسين فى السنين الأخيرة لم يبرزوا جانبا اساسيا فى شخصيته ، اعنى ولاءه لشعب مصر ، وعندما اذكر هنا شعب مصر فإنما اعنى جماهير فقرائها الذين يمثلون الغالبية الساحقة لهذا الشعب . ولقد برز هذا الولاء على النطاق الوطنى فى كتبه وعلى الاخص كتاب «المعذبون فى الأرض» كما برز فى سياسته التعليمية عندما كان مستشارا لوزارة التربية والتعليم أولا ثم عندما كان وزيرا للتعليم بعد ذلك . ومن أجل هذا الولاء خاض طه حسين معارك كثيرة - فكرية وشخصية - وتحمل كثيرا ، وكان القصر انذاك فى طليعة الناقمين عليه بسبب مواقفه الديمقراطية فى التعليم وبسبب كتاب «المعذبون فى الأرض» ، حتى أن فاروق تردد كثيرا فى تعيينه وزيرا للتعليم عندما عادت وزارة الوفد فى يناير سنة ١٩٥٠ إلى الحكم أثر انتخابات عامة عبرت فيها الجماهير عن ارادتها الحازمة بشكل ساحق .

وكل هذا معروف بطبيعة الحال وموثق تاريخيا ، لكن ما لا يعرفه الكثيرون أن طه حسين كان على المستوى الشخصى راعيا ومشجعا لكثير من شباب مصر المغمورين ، دافعا لهم لمزيد من التعليم ، سعيدا بهم سعادة الأب بأبنائه حتى عندما كانوا يختلفون معه !

ولقد شاءت الظروف أن أكون واحدا من هؤلاء ، لم اقصد هذا قصدا ولم يقصده ، ولم يكن يخطر فى بالى وأنا شاب صغير مغمور أننى سألتقى يوما من الأيام وجها لوجه مع هذا «الجبار» كما كانوا يسمونه فى محيطنا ! ثم كان أول لقاء لنا منذ واحد وثلاثين عاما ، وبالتحديد فى يناير سنة ١٩٥٠ .

كان طه حسين وزيرا جديدا للتعليم ، وكنت معيدا بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية جرى توقيفى لعدة شهور مع غيرى من المعيدين بجامعتى القاهرة والاسكندرية ابان وزارتى النقراشى وابراهيم عبد الهادى ، وخلال عام سنة ١٩٤٩ كانت معتقلات مصر فى الهاكستيب وأبو قير والطور ممتلئة

بألوف الشباب من طليعة الوفد والأخوان المسلمين والتقدميين، وعندما جاءت وزارة الوفد أول عام ١٩٥٠ اطلقت سراح الجميع .

وعدت إلى جامعة الاسكندرية لاستلام عملى ، لكننى فوجئت وغيرى بتلكؤ الجامعة فى قبول عودتنا لعملنا ، وبدأت الشائعات تقول أن مدير الجامعة - وكان معروفا آنذاك بصلته بالقصر - يريد أن ينقلنا إلى التعليم العام ، وأن عميد الكلية متواطىء معه فى هذا الأمر ، وران اليأس على قلبى واستبد بى الظلام . ماذا أفعل ؟

ركبت أول قطار إلى القاهرة قاصدا مكتب وزير التعليم وطلبت مقابلته لشرح الأمر له ، وكانت الوزارة تعج بمئات القادمين للتهنئة وقضاء الحاجات ، ولم أكن اطمع فى هذه الظروف - وأنا بلا واسطة - فى أكثر من تحديد موعد لى بعد اسبوع على أقل تقدير . لكن ما بهرنى أن طه حسين طلبنى للقائه بعد نصف ساعة من وجودى فى مكتبه ، واستمع إلى طويلا ولم ينبس ببنت شفة طوال حديثى ، ثم

اشار إلى سكرتيره أن يأخذنى إلى مكتبه وأن يطلب له مدير جامعة الاسكندرية على الهاتف . ولست أدرى بطبيعة الحال ما جرى بينه وبين مدير الجامعة ، لكنه طلبنى مرة أخرى بعد انتهاء الحديث ولم يزد على أن قال : «عد إلى الاسكندرية واستلم عملك فى الجامعة» . وقد كان ..

حاولت أن اشكر طه حسين بكلمات متلعثمة وأنا انسحب من غرفته . وعندما ذهبت إلى الاسكندرية كانت الشائعات قد سبقتنى إليها ، عن هذا اللقاء وعن حديث طه حسين مع مدير الجامعة ، حتى قال أحد اساتذة الجامعة أنه عرف أن حديث الوزير لمدير الجامعة كان حادا وأنه قال له «الحق أحق أن يتبع يا صادق بك» !

بعد تسعة اشهر من هذا اللقاء سافرت فى بعثة دراسية إلى بريطانيا للحصول على الدكتوراة فى الرياضيات ، وعدت فى سبتمبر سنة ١٩٥٢ بعد حصولى عليها من جامعة لندن ، وبعد أن قامت ثورة يوليو فى نفس ذلك الصيف . ولم أكد اصل إلى القاهرة حتى سعت كلية العلوم بجامعة

القاهرة إلى نقلى إليها من الاسكندرية لحاجتها إلى تخصصى ، وتم هذا فى نوفمبر عام ١٩٥٢ ، وهكذا بدأت حياتى العلمية والصحفية فى القاهرة ..

فى ظل الشهور الأولى لثورة يوليو كانت الحرية الصحفية واسعة نسبيا ، وكنت قد بدأت - مع التدريس فى جامعة القاهرة - اكتب مقالات فى قضايا الآدب والفكر فى جريدة «المصرى» التى كانت تخصص صفحتها الأخيرة كل يوم أحد لقضايا الآدب والفن والفكر .

ولم أكن اعلم أن طه حسين كان يقرأ هذه المقالات وأنه كان يضيق ببعضها حتى كان لقاؤنا الثانى بمنزله بالزمالك عام ١٩٥٣ .

قبل هذا اللقاء بشهور كنت قد انتقلت من الكتابة فى صحيفة «المصرى» إلى الكتابة فى مجلة «روز اليوسف» بعد مقال طويل كتبته عن قصص إحسان عبد القدوس ، ومع أن هذا المقال لم يكن مزكيا لادب إحسان ، إلا أن سعة افقه فى العمل الصحفي جعلته يطلب التعرف إلى ، ثم طلب منى أن أكون أحد كتاب روز اليوسف. وهكذا كان ..

وعندما انتقل فتحي غانم من «روز اليوسف» إلى «اخبار اليوم» سألني إحسان أن اكتب اسبوعيا باب «ادب» الذى كان فتحي غانم يتولى تحريره قبل انتقاله . وبدأت أكتب الباب اسبوعيا ، وكان من بين ما كتبته آنذاك مقال تضمن هجوما على كتاب جديد صدر لتوفيق الحكيم لاتجاهه الفكرى السلبى . ولست اذكر الآن أسم الكتاب ولكن اذكر أننى قلت فى هذا المقال : «إن توفيق الحكيم يجلس على قمة المستوى المائل ، وأنه ينحدر !» واذكر أن هذا المقال آثار ضجة لدى الكثيرين من محبى أدب توفيق الحكيم ، وأن أحدهم رد على مقالى بمقال فى «روز اليوسف» ولعل كاتبه كان الصديق العزيز بدر الدين أبو غازى وزير الثقافة الأسبق.

لقد اسهبت فى وصف ظروف كتاباتى آنذاك لأن هذا كله وثيق الصلة بلقائي الثانى بطه حسين ، وبما دار فى هذا اللقاء من نقاش . أما اسباب هذا اللقاء نفسه فكانت ايضا

غريبة وذات دلالة فى مواقف طه حسين رغم أن الموضوع كان فى اساسه شخصيا وليس عاما .

لقد اسهبت فى وصف ظروف كتاباتى آنذاك لأن هذا كله وثيق الصلة بلقائى الثانى بطه حسين ، وبما دار فى هذا اللقاء من نقاش . أما اسباب هذا اللقاء نفسه فكانت أيضا
غريبة وذات دلالة فى مواقف طه حسين رغم أن الموضوع كان فى اساسه شخصيا وليس عاما .

لقد جاءنى زميل لى فى الجامعة ، كان ولا يزال من ابرز اساتذة الرياضيات فى مصر ، فى أحد أيام عام ١٩٥٣ وسألنى إن كنت أعرف طه حسين . وقلت له إننى لم أر طه حسين غير مرة واحدة فى حياتى وأغلب الظن أنه قد نسينى ، وشرحت له ظروف هذا اللقاء . ولما سألته عن سبب السؤال عرفت أنه كان قد تقدم إلى جائزة «أمين لطفى» فى الرياضيات وأن طه حسين عضو فى اللجنة التى ستقرر الفائز لها ، وأن لديه معلومات مؤكدة أن بعض اعضاء اللجنة من رجال وزارة التعليم يبيتون النية على منحها لشخص آخر

وثيق الصلة بالسلطة ذكر لى اسمه وأنا اعلم عن ثقة بطبيعة تخصصى أن هذا الآخر لا يستحقها .

واستعنت باحسان عبد القدوس لكى يطلب لى موعدا مع طه حسين ، وتم تحديد الموعد فى اليوم التالى الساعة الحادية عشر صباحا .

كان محمود النحاس - مدير الأوبرا أنذاك - حاضرا فى هذا اللقاء ، وشرحت لطه حسين قلق زميلى مما يبيت له من بعض رجال التربية والتعليم ، وقناعتى الشخصية بامتياز هذا الزميل فى البحوث الرياضية قلت له «إننى اترك لك الموضوع بأكمله واثقا من أنك سوف تنصف صاحب الحق» .

انصت طه حسين لكل ما قلته ، وأنا اشعر بالارتباك والهيبة فى حضرته ، ثم قال : «قل لصديقك هذا أنه لن يظلم ما دمت فى هذه اللجنة» ، وهذا ما تم بعد لك فقد منحت الجائزة له فى نهاية الأمر .

غير أن طه حسين انتهز فرصة هذا اللقاء لمشاغبتى حول ما اكتبه في قضايا الفكر والادب ، وبدأ سائلا لى : «ما

علاقتك بالادب وأنت استاذ فى العلوم» وشرحت له أننى نشأت فى عائلة كثير من رجالها يحبون الادب ويتولون تدريس اللغة العربية بالمدارس ويهوون الشعر بالذات ، وأننى لم اشذ عن هذا التقليد إلى درجة أننى ترددت فترة عند التحاقى بالجامعة بين الالتحاق بكلية الآداب أو بقسم الرياضيات بكلية العلوم ، وأننى كنت فى شبابى المبكر شاعرا فاشلا ! .

ثم تجرأت وسألته رأيه فيما اكتب ! قال : «ينبغى أن تزيد من قراءاتك وإلا تكن ضيقا فى نظرتك ، انكم تتياسرون وتظنون أنى على يمينكم . هل كتب احدكم شيئا كالمعذبون فى الأرض !» .

ولقد خرجت من هذا اللقاء الثانى متيقنا أنه ما زال يذكر لقاءنا الأول منذ ثلاثة أعوام ، وأنه تصرف معى تصرف الأب الرحيم عندما يزجر واحدا من ابنائه ويرده إلى ما يعتقد أنه الصواب ، وأنه كان سعيدا لأن يرى أحد ابنائه ناجحا فى السلك الجامعى ، مهتما بقضايا الفكر والأدب .

ولم يدر بخلدى آنذاك في اللقاء الثالث سوف يتم بعد ذلك بشهور قليلة ، وبالتحديد فى مارس سنة ١٩٥٤ ، في نادي القصة وفي حضور نجيب محفوظ ويوسف غراب ووداد سكاكيني وآخرين لا أذكرهم الآن ، وأنه سوف يكون لقاء عاصفا ! لكن لذلك قصة أبدأ الآن فى شرحها من بدايتها ..

كانت جريدة «الجمهورية» - لسان حال الثورة - قد صدرت عام ١٩٥٣ ، وكان طه حسين فى أبرز كتابها ، له مقال اسبوعي يتابعه المثقفون بشغف فى قضايا الأدب والفكر . وفي فبراير من ذلك العام كتب طه حسين مقالا بعنوان «صورة الأدب ومادته» قدم فيه النظرة النقدية للمدرسة التقليدية فى الأدب ، وتقوم هذه النظرة على أن اللغة هى صورة الأدب وأن المعانى هى مادته وإن كان قد أضاف إلى هذين العنصرين عنصراً ثالثاً سماه «عنصر الجمال» لم يوضح نظرته إليه .

وتمنى طه حسين في ختام مقاله عن الأدباء الشبان أن يوضحوا رأيهم ونظرتهم النقدية فى الأدب . واحسست عند

قراءتى لمقال طه حسين كأنه يوجه لى تحديا شخصيا ، وتذكرت ما قاله له بمنزله بالزمالك فى لقائنا الثانى .

واتفقنا - محمود العالم وأنا - على أن نرد على طه حسين ردا مهذبا ومطولا فى جريدة «المصرى» نشرح فيه وجهة نظرنا ، واوجه خلافنا مع نظرته ونظرة جيله من الكتاب . ولخصنا فى ختام هذا المقال وجهة نظرنا على النحو التالى:

أولا : إن مضمون الأدب (أو مادته) ليس المعانى وإنما هو فى الجوهر الاحداث التى تجرى فى العمل الأدبى ، وأن هذا الأحداث تعكس مواقف ووقائع اجتماعية الدلالة .

ثانيا : أن صورة العمل الأدبى (أو صياغته) ليست هى الاسلوب وإن كان الأسلوب عنصرا من عناصر الصورة . فالصورة عملية تشكيل هذا المضمون وجوانب الاضاءة والظلال فيه ، إنها عملية ابراز عناصر هذا المضمون وتنمية مقوماته .

ثالثاً : أن تحديد الدلالة الاجتماعية للعمل الأدبى لا يتعارض مع تأكيد قيمة الصورة أو الشكل الأدبى ، بل على العكس قد يساعد على الكشف عن كثير من أسرار هذا الشكل .

رابعاً : أن النقد الأدبى – على هذه الأسس – ليس دراسة لعملية الصياغة في صورتها الجامدة فحسب ، وإنما هو استيعاب لكافة مقومات العمل الأدبى ما يتفاعل فيه من احداث وعلاقات ، وبهذا يصبح الكشف عن المضمون الاجتماعي ومتابعة عملية الصياغة مهمة واحدة متكاملة للناقد الأدبى .

وبطبيعة الحال ضربنا أمثلة من الأدب الأوروبى والمصرى لتوضيح وجهة نظرنا . وانتظرنا رد فعل طه حسين لمقالنا ، وجاء رده على صحفات الجمهورية في مقال بعنوان «يوناني فلا يقرأ» قال فيه: إنه لم يفهم شيئا مما نعنيه ، وأن ما كتبناه لا يخرج أن يكون كلاما يونانيا كما يقول الاوروبيون ! ثم سألنا عن رأينا فى أدب الطبيعة وما هى دلالته الاجتماعية يا ترى؟ !

حتى هذا الحد كان الحوار مقبولا وكنا على استعداد لأن نكتب بشكل أكثر تفصيلاً نوضح فيه ما نعنيه ، وإن كان قد ساورنا الشك أن طه حسين كان يفهم ما نعنيه وأنه اراد أن يدعى غير ذلك !

غير أن الأمور في هذا الحوار تطورت بشكل غير متوقع ، بدخول عباس العقاد ساحة النقاش بمقال مطول فى «اخبار اليوم» عنوانه : «إلى ادعياء التجديد .. اقرأوا ما تنتقدونه» ! ومع أننا لم نتعرض في مقالنا بأنه موجه ضده شخصيا ، وهكذا كان رده ، واستفزازيا وساخرا وعنيفا ومليئا بالغمز واللمز حول ميولنا السياسية .

وفى حماس الشباب وعنفوانه لم نملك إلا أن نكتب ردًا اشد عنفا واستفزازا كان عنوانه «عبقرية العقاد» . ومع أن المقال كان فى معظمه مناقشة فى قضايا الأدب إلا أنه امتلأ بالغمز واللمز عن قصائد العقاد فى مدح الملك فاروق ومقالاته فى جريدة «الأساس» ضد الشيخ حسن البنا ودور الأنجليز فى كتابه «هتلر فى الميزان» .

وفى هذا الجو المحموم ، وبعد صدور مقال «عبقرية العقاد» بيومين ذهبت إلى نادى القصة ولم أكن ادرى أننى فى طريقى إلى لقاء عاصف مع طه حسين !

احسست منذ أول وهلة وأنا اسلم عليه بأنه غاضب ، ولم أكد اجلس على أحد مقاعد الغرفة حتى بادرنى قائلا «أنا زعلان منك .. كيف تسمح لقلمك أنت وصديقك أن يشتد فى الهجوم على الاستاذ العقاد إلى هذا الحد؟» .

قالت السيدة وداد سكاكينى وكانت من حضور هذه الجلسة : «البادى اظم يا باشا» وقال نجيب محفوظ جملة أو جملتين فى محاولة لتهدئة غضب طه حسين .

وبهت برهة ثم بدأت اشرح وجهة نظرى فى الموضوع كله، لكنه لم يقتنع ولم يكن فى الحقيقة منصتا لما أقول ، واشار إلى بعض الحاضرين أن اصمت لأنه لا مجال للمناقشة فى مثل هذا الجو .

وخرجت من نادى القصة حزينا مهموما لأننى لم أكن أحب أن اراه غاضبا إلى هذا الحد ، ثم خطر لى بعد ذلك ان

اكثر ما ضايقه هو غمزنا للعقاد فى قصيدته التى مدح بها فاروق ، فقد كان لطه حسين خطاب معروف فى افتتاح جامعة الاسكندرية - وفى حضور فاروق - امتلأ بمدح الملك ومدح اسرته . ولعل هذا التفسير قد اراحنى نفسيا إلى حد كبير ، ولم أيأس فى أن تصفو نفسه بعد هدوء العاصفة .

واحسب انى لقيت طه حسين بعد ذلك بسنوات مرة أو مرتين فى مناسبات خاطفة لم نتبادل فيها كلاما كثيرا ، لكن ما ادهشنى بعد ذلك أن أعلم انه كان يتابع ما اكتب متابعة الاب لاحد ابنائه ، وكان يسأل عنى كلما جمعته لجنة الترجمة فى المجلس الاعلى للفنون والاداب أو جلسات المجمع اللغوى بواحد من اشقائى .

ومضت سنوات طويلة لازم فيها طه حسين بيته بسبب مرضه ، وخطر لى أكثر من مرة ان اذهب لزيارته ، لكنى تراجعت بعد ذلك لاننى لم أكن متيقنا ان العلاقة بيننا تسمح لى بهذه الزيارة .

ثم جاء النذير بالنبأ التعيس .. نبأ وفاته فى اكتوبر عام ١٩٧٣ ، واحسست بغم ثقيل ، وتملكتنى كآبة دامت أياما ،

وعندما مشيت فى جنازته التى خرجت من جامعة القاهرة لم أكن احس أن مصر فقدت رجلا من كبارات رجالها ومفكريها فحسب ، وانما كنت أحس اننى فقدت انسانا عزيزا على نفسى قريبا من قلبى . علي الرغم من اننى لم اقابله غير مرات معدودة لا تزيد على أصابع اليد الواحدة ، وعلى الرغم من خلافنا فى الفكر .

الطريق المسدود

منذ أيام كتب الاستاذ توفيق الحكيم يصف روايات الاستاذ احسان عبدالقدوس قائلا : انها القصة ذات المفتاح . وهو يعنى بذلك ان الرواية كثيرا ما تنطوى على مبدأ معين ، فكرة معينة .. وحينما تدرك من احداث الرواية هذه الفكرة تكون قد فتحت الباب إلى فهم القصة فهما صحيحا .

واحسان مغرم بالقصص ذات المفتاح ، ولكنه فوق ذلك مغرم بوضع مفتاح كل قصة من قصصه على صورة شعار معين ، فمثلا فى رواية «الطريق المسدود» يقدم لنا احسان منذ البداية وقبل أن نعرف احداث الرواية الشعار التالى :

«ان الخطيئة لا تولد معنا ولكن المجتمع يدفعنا إليها».

وهذا هو (فى تقديره) مفتاح قصته .

فلنتخذ اذن من مناقشة هذه المسألة نقطة بدء ..

أولا : يعتبر تقديم «مفتاح القصة» فى البداية خطأ فنيا واضحا ، فالمفروض أن الروائى يقودنا ، نحن قراءه ، فى طريق أوله مجهول ووسطه غموض وآخره وضوح عند القارئ اللبيب .

ثروت عكاشة وأنا

أسعدنـــى تماما ما فعلته الدكتـورة سعاد الصباح - التى أحمل لها كل تقدير منذ لقائنـا فى ندوة للأمم المتحدة منذ سنوات طويلة - من تكريم للدكتـور ثروت عكاشة وزير الثقافة الأسبق . ففضل هذا الرجل على الثقافة فى مصر طوال سنوات وزارته لا يمكن إنكاره إلا لجـاحـد . وأنا شخصيا أحببت هذا الرجل طـوال حياتى وطوال الأيام التى عرفته فيها، وقد عملت تحت رئاسته عاما كاملا (من نوفمبر سنة ١٩٦٧ حتى نوفمبر سنة ١٩٦٨) كنت فيها معارا من الجامعة كرئيس مجلس إدارة شركة الكاتب العربى للطباعة والنشر ، فكان كريما غاية الكرم فى تعامله معى حتى عندما كنا نختلف فـى الرأى ، وكـان من عادته أن يعقد اجتماعا أسبوعيا فى مكتبه يحضره كل رؤساء المؤسسات والشركات التى تتبع وزارة الثقافة ، من جهابذة المثقفين المصريين : نجيب محفوظ، عبدالرازق حسن ، محمود أمين العالم ، سهير القلماوى ، سعد وهبة ، سعد كامل ، على الراعى .. الخ .

ولقد عرفت ثروة عكاشة قبل الثورة ، إذ كنا من شباب حى العباسية ، ومع أنها كانت معرفة عابرة ، إلا أنها تجددت بعد الثورة . عندما كان هو الملحق العسكرى لمصر فى باريس، وكان سكرتيره الخاص آنذاك أحمد طرباى - أحد شباب الطليعة الوفدية - الذى توثقت علاقتى به عندما كنا سويا فى معتقل الطور عام ١٩٤٩ .

وعند عودتى من بريطانيا إلى القاهرة فى صيف ١٩٥٤ ، مررت بباريس وقابلنى أحمد طرباى ودبر لى لقاء ثروت عكاشة في مكتبه الذى سألنى عن الأحوال فى مصر فتحدثت معه بصراحة ، والغريب اننى عندما قابلته في باريس فى أواخر سبتمبر سنة ١٩٥٤ لم أكن على علم أن قرارا من مجلس قيادة الثورة بفصل ٤٢ أستاذا من الجامعة كان قد صدر واننى واحد من المفصولين . ولم أعلم بهذا القرار إلا عند وصولى إلى الاسكندرية .

ولقد انقطعت صلتى بثروت عكاشة حتى وقعت كارثة يونيو سنة ١٩٦٧ ، فقام بدعوة عدد من المثقفين إلى اجتماع فى

مكتبه ، وكنت واحدا منهم وأتذكر من الحاضرين يوسف إدريس وعبدالرحمن الشرقاوى ومحمود العالم وعلى الراعى وآخرين ، وكنا جميعا فى غاية الثورة على حجم الهزيمة وعلى الخديعة التى مررنا بها جميعا عن أحوال الجيش المصرى . وكان ثروت عكاشة صبورا مع صراحتنا التى تحدثنا بها ، وقد خرجنا من هذا الاجتماع باتفاق على عقد اجتماعات أخرى ، لكن هذا لم يحدث .

حتى جاء شهر نوفمبر عام ١٩٦٧ ، وكنت أحاضر كالعادة يوم الخميس فى كلية العلوم بجامعة عين شمس عندما فتح الباب وإذا بأحد سعاة الكلية يقول لى إن مكتب وزير الثقافة على التليفون ، واستأت من دخوله هكذا ، وقلت له أن يبلغهم بأننى سوف اتصل بهم عندما تنتهى محاضرتى.

وبالفعل أبلغنى د. ثروت عكاشة عندما اتصلت به ضرورة حضورى فورا إلى مكتبه لأمر مهم ، وعندما قابلته أبلغنى بأنه قابل الرئيس عبدالناصر فى اليوم السابق وعرض عليه ترشيحات وزارة الثقافة وأن عبدالناصر اقترح اسمى رئيسا

لمجلس إدارة الكاتب العربى للطباعة والنشر بدلا من الأستاذ محمود العالم الذى عين رئيسا لمؤسسة المسرح .

وحاولت أن أعتذر قائلا إننى أفضل عملى بالجامعة على أى عمل آخر ، فقال لى : « إنك لا تستطيع أن تعتذر ، فهذا توجيه من الرئيس » . قلت « إذن : ليكن هذا التعيين بمثابة إعارة من الجامعة لمدة عام أجرى فيها عملى الجديد ، وبعدها يكون لكل حادث حديث» ووافق على ذلك وقد تبين بعد ذلك أنه كان قد حصل على موافقة وزير التعليم العالى دون أن تعلم الكلية أو الجامعة شيئا عن هذه الإعارة .

وقد حاولت انقاذ هذه الشركة من ظروفها المالية السيئة وأعدنا تنظيم العمل فى مطابعها ، واستعنت بعلاقتى القديمة بوزير الخزانة - الدكتور نزيه ضيف - للحصول على قرض للشركة يساعدها على دوام نشاطها فى النشر ، وتعاقدت مع وزارة التربية والتعليم فى ليبيا لطبع كتب مدرسية بحوالى ربع مليون جنيه استرلينى فضلا عن نشاط الشركة فى نشر

الكتب والموسوعات ، وبعد انتهاء العام تمكست بإنهاء إعارتى وعودتى إلى الجامعة مرة أخرى .

* * *

إن السبب الذى دعانى إلى كتابة هذا المقال الذى أعبر فيه عن سعادتى بتكريم ثروت عكاشة ، هو اننى أحسست منذ صدور كتابه «مذكرات ثروت عكاشة» وما كتبته من مقالين انذاك عن هذه المذكرات فى صحيفة «الأهالى» بأنه - أى ثروت عكاشة - غاضب مما كتبته ، وقد اتصل آنذاك بالأستاذ خالد محيى الدين فى ثورة عارمة وهدد برفع دعوى ضد جزيدة الأهالى وضدى ، وحاول خالد محيى الدين كما حاول الأستاذ حسين الشافعى اقناعه بأن ما كتبته لا يحوى أى طعن فيه ، لكنه كان تحت فكرة متسلطة عليه قوامها أن ما دفعنى إلى كتابة ما كتبت هو الصديق محمود العالم - وثيق الصلة بشعراوى جمعة وزير الداخلية الأسبق - الذى يحاول الاساءة إلى اسم ثروت عكاشة .

ونظرا لأهمية الموضوع ولأن الموضوع قد أحاطه سوء الظن من أوله إلى آخره . ولأننا - ثروت عكاشة وأنا - نقترب من أيام عمرنا الأخيرة ، رأيت أن أكتب للتاريخ هذه الكلمة اشرح كيف وقع سوء الظن هذا الذى لم يكن لمحمود العالم أى دخل فيه .

عندما نشر ثروت عكاشة مذكراته كان من الطبيعى أن يتطلع إلى تعليق من جريدة الأهالى عليها واتصل بخالد محيى الدين - وهو صديق عمره فى سلاح الفرسان - يسأل عن ذلك الذى اتصل بدوره بالأهالى فقال له رئيس التحرير إنه اتفق معى على الكتابة عن هذه المذكرات . ثم قابلنى خالد محيى الدين فى عزاء أحد الأصدقاء وقال لى إن ثروت عكاشة يسأله عن هذا الموضوع فاستمهلته حتى انتهى من محاضراتى فى الجامعة ، ثم أكتب التعليق .

وبالفعل كتبت مقالين عن هذه المذكرات أشدت فيهما بجهوده فى ميدان الثقافة ، لكن لفت نظرى فيها أمران : أولهما اختلاط بعض التواريخ على الدكتور عكاشة . وهذا

أمر طبيعي يحدث لنا جميعا ، فحاولت تصحيح بعض هذه التواريخ . أما الأمر الثانى الذى لفت انتباهي - وكنت خالى الذهن تماما عنه - فهو الإشارة فى هذه المذكرات إلى محاولة جر اسم الدكتور عكاشة إلى قضية صلاح نصر والمخابرات وتحقيقاتها التى جرت بعد كارثة يونيو سنة ١٩٦٧ . وقد ورد فى هذه المذكرات أن السادات- بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية - طلب من شعراوى جمعة - وكان لايزال وزيرا للداخلية - طلبا يخص الدكتور عكاشة . اعتذر عنه وزير الداخلية .

كان من الطبيعى أن يلفت نظرى هذا الكلام فى المذكرات التى لم يكن بها أى تفصيل فى هذا الموضوع . لكن الذى أثار انتباهى أكثر اننى قرأت حديثا لشعراوى جمعة فى مجلة روز اليوسف - فى الوقت نفسه الذى كنت أكتب فيه مقالاتى - ينفى فيه بعض ما جاء فى مذكرات ثروت عكاشة .

وبالطبع أدهشنى هذا ونوهت به فى جملة عابرة فى مقالى الأول، وكنت حتى تلك اللحظة خالى الذهن تماما من حقيقة

التوتر الذى كان قائما بين ثروت عكاشة وشعراوى جمعة .
ومن قضايا تحقيقات المخابرات بعد عام ١٩٦٧ ، ويهمنى أن أوضح اننى لم التق بشعراوى جمعة - وهو وزير للداخلية - أبدا ، وانني كنت التقى به أحيانا لقاء عابرا فى شوارع مصر الجديدة فيعلق على مقالاتي في صحيفة الأهالي مستحسنا .
وذلك في مرحلة الثمانينيات .

لم أدخل التنظيم الطليعي !

بمعنى آخر لم تتوافر لى علاقة بشعراوى جمعة ولا بأى قطب ناصرى عندما كانوا فى السلطة . كما اننى لم أدخل فى التنظيم الطليعى . ولذلك فإن ما تصوره الدكتور عكاشة من ان إشارتي المقتضبة إلي بعض ما لفت نظرى فى هذه المذكرات هو من تحريض محمود أمين العالم بايعاز من شعراوى جمعة رئيسه في التنظيم الطليعى هو محض خيال يعلم الله أن محمود العالم بريء منه تماما ، وإننى لم أكن على علم بخلفيات هذه الأمور عندما أعددت مقالى للنشر فى «الأهالى» . لكن الأمور تطورت بعد ذلك . فقد اتصل بى

شعراوى جمعة تليفونيا بعد ظهور مقالاتى فى الأهالى ورجانى أن أمر عليه فى منزله بشارع نزيه خليفة أمام حديقة الميرلاند فى مصر الجديدة .

وقد مررت عليه الساعة الثانية ظهرا - وكنا فى شهر رمضان فيما أذكر - وشرح لى شعراوى جمعة وجهة نظره فيما قيل من توتر بينه وبين د. ثروت عكاشة .

وخرجت من منزله وقد اكتشفت مدى جهلى بأشياء عديدة تتعلق بالسلطة في مصر أيام المرحلة الناصرية وما بعدها . ولقد كتبت ما كتبت فى مقالات الأهالى دون أن أعلم أى شىء عن هذه القضايا . وإنما نوهت بما لاحظته من تباينات بين كلام وزيرين سابقين كانا يعملان فى نظام سياسى واحد ، كما نوهت بما بدا لى غامضا فى المذكرات .

وقد انتهى هذا الموضوع كله عندما قام الأستاذان حسين الشافعى وخالد محيى الدين بإقناع الدكتور عكاشة بأن المقالين اللذين نشرتهما الأهالى ليس بهما ما يسىء إليه ، وانني من باب أولى لم أقصد الاساءة إليه من قريب أو بعيد .

ولعله اقتنع بحسن نيتى عندما كتبت ما كتبت وإن كنت أشك فى ذلك .

ويهمنى اليوم – بمناسبة الاحتفال بتكريم د.عكاشة – أن أقول إننى حملت له طوال حياتى كل التقدير فى هذا العمل الفذ الذى قام به كوزير للثقافة ، وإننى أرجو له موفور الصحة والمزيد من النشاط الفكرى الكبير الذى يخلد اسمه ضمن كبار مثقفى مصر والعالم العربى ، كما يهمنى أن أشكر الدكتورة سعاد الصباح على هذه اللفتة الكريمة التى كان من المفروض أن تبدأ فى مصر..

ذكريات مع إحسان عبد القدوس

رأيت إحسان لأول مرة فى المدرسة ، مدرسة فؤاد الأول الثانوية ، كان هو فى السنة الخامسة أو الرابعة - لا أذكر بالضبط - وكنت بالسنة الأولى ، وكانت هذه السنة - ١٩٣٥ - هى سنة المظاهرات ضد الانجليز وكان حزب الوفد فى مقدمة المحرضين على هذه المظاهرات . لكن مشكلة مدرستنا أن كان على رأسها ناظر اتسم بالحزم والشدة (إسماعيل القبانى) فلم يكن يتردد فى فصل أى تلميذ يراه يهتف بالشعارات السياسية فى فناء المدرسة . وكان من الطبيعى أن يكون «الهتيفة» من تلاميذ السنة الرابعة والخامسة .

ولما زاد عدد المفصولين من تلاميذ الصفين الرابع والخامس ، تفتق ذهن الباقين منهم ، عن حيلة حتى لا يستطيع الناظر أن يرى المسئول عن بدء الهتافات .

وتتلخص الحيلة فى أن يبدأ واحد من تلاميذ السنة الأولى من القصار بالهتاف على أن يحيط به تلاميذ الصفين الأخيرين من جميع الجوانب ويقتصر دورهم على ترديد الهتاف وراءه فلا يستطيع أحد معرفة من الذى بدأ الهتاف

فى المدرسة ، وتطوعت أنا وغيرى من تلاميذ السنة الأولى لأداء هذه المهمة ، وخرجنا إلى الشارع وعندئذ اصطدم البوليس بنا وأطلق بنادق الرش علينا فقمنا برميه بالطوب وكانت معركة انتهت بالقبض علىّ فى المساء من منزلى بينما نجا إحسان مع أنه كان فى مقدمة المظاهرة .

ودخلت السجن لأول مرة فى حياتى وقضيت أربعا وعشرين ساعة ما بين حجز قسم الوايلى وتخشيبة محافظة القاهرة ، ولم يفرج عنى إلا بسبب صغر سنى إذ كنت فى الثامنة عشرة من العمر ، وعندما عدت فى اليوم التالى إلى المدرسة استقبلت استقبالا حماسيا من التلاميذ .

ولابد أن إحسان كان قد تابع هذه الأحداث وتيقن من شكلى المميز تماما ، ولاننى عندما قابلت احسانا بعد الثورة فى مكتبه بروز اليوسف بعد سبعة عشر عاما من هذه المظاهرات وجدته يذكرنى بها وبحادث القبض علىّ لمدة يوم كامل .

كان إحسان – تلميذا مرموقا فى المدرسة ، فأمه السيدة روزاليوسف الصحفية المشهورة ووالده الأستاذ محمد عبدالقدوس الممثل المعروف ، بينما لم يكن أحد يعرفنا ، ومع أن إحسان لم يكن آنذاك يعرفنى شخصيا إلا اننى كنت أعرف عن طريق أقاربى من عائلة أمى القاطنين فى حى العباسية الكثير عنه . فقد كنت أعرف أنه يقيم مع عمته فى شارع رضوان شكرى (حيث كان يقيم نجيب محفوظ) سنين طويلة ، وأنه ظل يقيم مع عمته السيدة نعمات رضوان إلى أن أنهى دراسته الثانوية والتحق بكلية الحقوق فانتقل إلى منزل والدته .

وظللت أتابع من بعيد إحسانا فى عمله الصحفى ومقالاته النارية عن قضية الأسلحة الفاسدة دون أن نلتقى إلى أن عدت من البعثة بعد حصولى على الدكتوراه من جامعة لندن فى سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، وتم تعيينى مدرسا بقسم الرياضة البحتة بكلية العلوم جامعة القاهرة ، وبدأت اكتب مقالاتى فى الأدب فى صفحة يوم الأحد بصحيفة المصرى ، وأذكر أننى

كتبت مقالا عن «الأدب الواقعى» تعرضت فيه بشكل جانبى لقصص إحسان ورأيى السلبى فيها . وإذا بأحد الأصدقاء من العاملين مع إحسان فى روزاليوسف يتصل بى تليفونيا ويبلغنى بأنه يريد أن يرانى ، فلما ذهبت إليه فى مكتبه فوجئت به يعرض علىّ الكتابة بانتظام فى روزاليوسف . وهكذا بدأت صلتى من جديد بإحسان وبالمجلة ، وظللت أكتب فيها حتى نهايات عام ١٩٥٤ وأذكر أننى قمت بتحرير باب «أدب» فى المجلة بعد انتقال فتحى غانم إلى أخبار اليوم .

موقف لن أنساه :

لكن حدث فى نهايات عام ١٩٥٤ أن أصدر مجلس قيادة الثورة قرارا بفصل ٤٢ من أساتذة الجامعات الذين عارضوا النظام بسبب قضية الديمقراطية ، وكنت واحدا من المفصولين ووجدت نفسى بلا عمل فجأة وأنا صاحب أسرة . ولم يمض وقت طويل حتى عرضت علىّ وظيفة مدرس بإحدى كليات جامعة لندن فقبلتها على الفور وسافرت إلى بريطانيا .. ومن هناك أخذت أرسل مقالات فى قضايا ثقافية فيقوم إحسان

بنشرها فى المجلة مع أنه يعلم أننى من المغضوب عليهم من جانب السلطة .. وفى أحد الأيام وصلنى منه خطاب يقول فيه إنه حزين لأننى أعمل فى خدمة جامعة بريطانية بينما تحتاج مصر إلى من هم مثلى ، ورددت عليه قائلا إننى سأكون أسعد إنسان إذا استطاع أن يدبر لى أى عمل فى مصر .. وبعد وصول خطابى كتب إحسان مقالا طويلا فى روز اليوسف عنوانه (الرجل الذى سرقه الانجليز) قال فيه عنى كلاما طيبا قد لا استحقه ودعا الحكومة إلى إعادتى إلى جامعة القاهرة .

وبعد نشر المقال بأيام كان إحسان فى طريقه إلى باندونج فى صحبة جمال عبدالناصر ، الذى سأله عن المقال وعنى فشرح إحسان وجهة نظره بالكامل . لكن عبدالناصر ختم حديثه قائلا : إن الشيوعيين يضحكون عليك،يستخدمونك يا إحسان ! وبقيت فى بريطانيا حتى أعلن عبدالناصر تأميم القناة فى يوليو سنة ١٩٥٦ فقدمت استقالتى على الفور من الجامعة وقررت العودة إلى مصر، وكان إحسان واحدا من

أسعد الناس لعودتى وتوثقت صلتنا من جديد خصوصا أننى بدأت أعمل فى صحيفة «المساء» بالقاهرة كمحرر للشئون العربية وأصبحت متفرغا للعمل الصحفى .

ولعل هذه الوقائع التى سردتها توضح كيف كان إحسان مستنيرا واسع الأفق وشجاعا فى الوقت نفسه فى الدفاع عن رجل لا يشاركه قناعاته السياسية . وثمة مثال آخر يوضح كيف كان واسع الأفق حتى عندما يتعلق الأمر بإنتاجه الأدبى: أذكر مرة أننى دعيت للاشتراك فى ندوة بالإذاعة بالبرنامج الثانى فى عام ١٩٥٧ لمناقشة قصته (الطريق المسدود) وكان زميلاى فى الندوة هما إحسان وكامل الشناوى . وكنت قد أعددت ملاحظاتى النقدية لكى استفيد منها فى الندوة لكنى أحسست بأن كامل الشناوى قد استهلك وقت الندوة كله فلم يدع لى فرصة لتوضيح وجهة نظرى وهكذا كتبت مقالا عن القصة ونشرته فى صفحة الأدب بصحيفة المساء وكان هذا المقال هو الوحيد الذى نشرته فى النقد الأدبى إبان عملى فى المساء وكان مقالا قاسيا شديد

الوطأة على أدب إحسان كله ، وهاجت السيدة روزاليوسف وماجت عند نشر المقال ، وشتمت كل المحررين اليساريين الذين كانوا يعملون فى روزاليوسف آنذاك مع أنهم لا ذنب لهم فيما نشرته أنا من آراء. لكن إحسانا ظل على صداقته لى ولم يفاتحنى فى كلمة مما نشرت .

ولقد ظلت سنوات عملى فى صحيفة «المساء» هى أيضا سنوات ارتباطى الوثيق بإحسان وكامل الشناوى وكنا عادة نلتقى مساء كل يوم خميس فى صحيفة الجمهورية فى مكتب كامل الشناوى وننتظر حتى تصدر الطبعة الأولى من جريدة الجمهورية ثم نخرج نحن الثلاثة للسهر حتى الصباح تقريبا فى فندق مصر الجديدة ، وكان يشاركنا هذه السهرات أحمد بهاء الدين أو فتحى غانم أحيانا . وعندما رشحت نفسى فى يوليو ١٩٥٧ للانتخابات النيابية عن الدائرة السادسة (الوايلى والعباسية) لم يتردد إحسان هو وكامل الشناوى فى التوقيع على بيان الكتاب والفنانين الذى دعا الشعب إلى انتخابى ، هذا رغم علمهم أن بعض أجهزة السلطة فى مصر لم تكن راضية عن ترشيحى وكانت تسعى سرا وعلنا إلى إسقاطى

فقد كنت مرشح اليسار الوحيد فى هذه الانتخابات وكان نجاحى سابقة لها ما بعدها .

فى أول يناير ١٩٥٩ بدأت الحملة الأمنية ضد قوى اليسار فى مصر ، واعتقل أكثر من مائتين فى اليوم الأول كنت واحدا منهم . وكان الخلاف قد بدأ حول قضية الوحدة مع سوريا وشكلها وقضية الديمقراطية ثم تداعت الأحداث إلى حملة معادية للشيوعية استمرت سنوات .

وبقيت فى معتقلات مصر خمس سنوات وثلاثة شهور ، هذا على الرغم من أننى قدمت للمحاكمة أمام مجلس عسكرى فى نوفمبر سنة ١٩٥٩ وأصدر المجلس حكما ببراءتى :

وعندما أفرج عنى فى أبريل سنة ١٩٦٤ اتصل بى إحسان عبدالقدوس ودعانى إلى الكتابة فى روزاليوسف وبالفعل عدت للكتابة من جديد فيها إلى أن انتقل الاستاذ أحمد بهاء الدين إلى دار الهلال فانتقلت إلى الكتابة فى مجلة المصور معه .

ولقد ترددت كثيرا على منزله فى الستينيات ومازلت أذكر لقاءنا مع جيفارا فى منزله الحالى فى الزمالك ، والنقاش

الذى دار آنذاك حتى الصباح تقريبا وفى هذه اللقاءات كنا نتفق ونختلف ولم يؤثر الاتفاق أو الخلاف على مودتنا المتبادلة.

إلا أن الأيام باعدت بيننا بعد ذلك . فقد توفيت زوجتى عام ١٩٧٥ وبدأت أسافر كثيرا ، فقضيت فى بريطانيا أكثر من عامين ونصف استاذا زائرا فى السبعينيات وعملت مع الأمم المتحدة بالكويت أربع سنوات بين أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات ولم التق مع إحسان طوال هذه السنوات ، لكنى كنت حريصا دائما على أن أبعث له تحياتى وتمنياتى له بالصحة والعافية كلما قابلت نجله الأكبر محمد ولاشك فى أن مرضه فى السنين الأخيرة قد أثر على اتصالاته بأصدقائه القدامى ، كما أن للشيخوخة أحكاما!

وعندما ذهبت للمشاركة فى تشييع جنازته أحسست اننى أحمل على ظهرى ذكريات خمسين عاما من النضال والاتفاق والخلاف، ولم استطع أن اكتم دموعى ونحن نودعه الوداع الأخير!

لقاء مع جيفارا

مرت عشرون عاما على هذا اللقاء بالثائر الكوبى جيفارا عندما التقينا بالقاهرة في منزل الصديق إحسان عبدالقدوس.

كان جيفارا عائدا من الجزائر بعد حضوره مؤتمر القارات الثلاث وطيرت وكالات الأنباء أجزاء من خطابه فى المؤتمر، وفيه ينتقد شروط معونة الدول الاشتراكية للدول النامية مما بدا غريبا علينا ، وكانت وجهة نظره فيما يبدو أن الدول الاشتراكية يجب أن تكون أكثر كرما وسخاء فى معونتها إذا أريد لهذه الدول النامية أن تبنى الاشتراكية على أرضها ، وكان جيفارا يتكلم كوزير للصناعة فى كوبا عاصر مشكلات البناء الاشتراكى واكتوى بلهيبها .

وعندما دق جرس التليفون فى منزلي وأخبرنى إحسان عبدالقدوس بدعوتى للعشاء فى منزله وحضوره الحفل الكبير الذى أقامه على شرف الثائر الكوبى جيفارا شعرت بسعادة كبيرة فقد حانت إذن فرصة اللقاء مع هذا الثائر الكبير والنقاش معه .

ولقد دعى إلى هذا العشاء كثيرون من كبار صحفيى مصر ومثقفيها وفنانيها أذكر من بينهم «خالد محيى الدين» وزوجته

وأحمد بهاء الدين وزوجته وأحمد حمروش وزوجته وموسى صبرى وزوجته ونجمة الشاشة المصرية فاتن حمامة وآخرين كثيرين لا أذكرهم الآن وإن كنت أتذكر وجود فؤاد الركابى وزير الشئون البلدية العراقى فى هذا الحفل الكبير .

ومازلت أذكر حتى الآن أن كثيرا من السيدات اللاتى حضرن هذا الحفل تجمعن حول فاتن حمامة يناقشنها فى فيلمها الجديد آنذاك «الحرام» لقصة الكاتب الكبير يوسف ادريس ، وفيما أذكر كان لكثير منهن ملاحظات نقدية على الفيلم وعلى بعض مشاهده وبعض تقنيات اخراجه ، ومع أنى لا أتذكر اليوم تفاصيل هذه المناقشات إلا أننى لازلت أذكر الدفاع الحار لفاتن حمامة عن الفيلم وسخونة الحوار بينها وبين عدد من سيدات الحفل . وأتذكر أيضا أننى كنت أحس بحسرة لعدم حضور زوجتى الصحفية عايدة ثابت هذه المناسبة ، فقد كانت مريضة بمستشفى دار الشفاء تحت ملاحظة الأطباء بسبب متاعب الحمل لابنتنا حنان التى ولدت بعد هذه المناسبة بخمسة شهور .

بعد العشاء انتقل معظم الرجال إلى غرفة مكتب إحسان وأبديت لجيفارا رغبتي في إجراء حوار معه حول عدد من القضايا السياسية والاقتصادية ورحب على الفور بذلك ، وهكذا تحلق حول هذا النقاش عدد محدود من الأصدقاء المهتمين بهذه القضايا ينصتون وبعضهم يترجم أو يتدخل في النقاش مستسفرا عن جزئية هنا أو هناك .

كان جيفارا يتحدث بالفرنسية التى يجيدها وكنت أتحدث بالانجليزية التى أجيدها ، وكان السفير الكوبى الذى يجيد اللغتين وأحيانا الصديق أحمد بهاء الدين يتولى الترجمة من الفرنسية إلى الانجليزية أو العكس .

ولقد استمر النقاش حتى الثانية صباحا ، وفتحت موضوعات كثيرة وإن لم تقفل كلها برأى نهائى أو باتفاق فى وجهات النظر . وكانت القضية الأساسية التى تشغلنى آنذاك هى : كيف تستطيع دولة صغيرة ذات موارد محدودة مثل كوبا أن تبنى الاشتراكية وماهى المصاعب التى تواجهها فى

البناء الاشتراكى، وكيف تواجه كوبا مشاكل الإنتاج والاستهلاك ثم قضية معونات الدول الاشتراكية التى كانت محل نقده فى خطابه فى مؤتمر القارات الثلاث بالجزائر، وكنت فى هذه الاسئلة التى اطرحها أمام جيفارا أتحدث وعينى على مصر وتساؤلات عديدة تدور فى خاطرى حول ما يجرى فى مصر من مشاكل مشابهة فى ظل مناخ عام يتحدث عن بناء الاشتراكية بمصر فى مواجهة مصاعب ضخمة خارجية وداخلية ، وفى ظل شكوك كثيرة تراودنى وتراود الكثيرين من أمثالى حول إمكانية تحقيق هذا الهدف العظيم فى ظل الظروف السياسية الداخلية وعلاقات القوى الاجتماعية القائمة .

أما القضية الثانية التى كانت تشغلنى فهى : موضوع المواجهة بين الامبريالية الامريكية وكوبا التى لا تبعد عن شواطىء أمريكا بأكثر من تسعين ميلا ، صحيح أن المواجهة بين خروشوف وكيندى حول قضية الصواريخ عام ١٩٦٢

انتهت إلى التزام الولايات المتحدة باحترام استقلال كوبا ، ولكن إلى متى سوف تحترم أمريكا استقلال كوبا وهى معزولة وسط بلدان امـريكا اللاتينيـة التى تدين مـعظمـها بالولاء للولايات المتحدة ؟

ولقد استفاض جيفارا فى ردوده على كل هذه الاسئلة .. وقال فيما يتعلق بقضية التطبيق الاشتراكى لدولة صغيرة مثل كوبا إنها مشكلة حقا وإن مشكلة التطبيق الاشتراكى فى دولة مترامية الأطراف مثل الاتحاد السوفييتى هى مشكلة خاصة وتختلف تماما عن قضية التطبيق الاشتراكى فى دولة نامية صغيرة مثل كوبا وقال إنهم فى حماسهم للحل الاشتراكى اندفعوا إلى بناء المصانع وتغيير نمط الزراعة الكوبية دون تفكير وتخطيط صحيح طويل المدى وانهم وضعوا خطتهم الأولى على أســاس أن تكون لمشـروعــات الإنتــاج ٧٠٪ ولمشروعات الخدمات ٣٠٪ من الاستثمارات وبعد ثلاث سنوات اكتشفوا أنهم نفذوا ٧٠٪ من مشروعات الخدمات ،

٣٠٪ من مشروعات الإنتاج وقال جيفارا إن تلك مشكلة كبيرة لشعوب الدول النامية التى فى أمس الحاجة إلى الخدمات بعد حرمان طويل .

وقال جيفارا إنهم كانوا يحاكون تجربة تشيكوسلوفاكيا فى بناء الاشتراكية . وعندما سئل : لماذا تشيكوسلوفاكيا بالذات؟ قال إنه ليس هناك سبب محدد سوى أن هذا البلد أرسل لنا تفصيلات عن تجربته وكنا فى لهفة على العمل الجاد فبدأنا نعمل دون تخطيط سليم ثم أخذنا بعد سنوات نصحح أخطاءنا وقال جيفارا إن العالم الرأسمالى قد تغير كثيرا عما كان عليه الوضع أيام ماركس وإن ماركس على أى حال لم يضع حلولا لقضايا التطبيق الاشتراكى، فإذا كان العالم قد تغير كثيرا عن أيام ماركس فلابد من إعادة النظر فى مقولات ماركسية عديدة وخاصة فيما يتعلق بقضية التطبيق الاشتراكى للدول النامية والصغيرة وقال إن الدول الاشتراكية الأوربية التى بنت الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية قد حذت حذو النموذج السوفييتى ولم يكن لدى أحد الشجاعة الكافية ليناقش ويعارض على أساس عدم الملاءمة .

وكان من رأى جيفارا أنه لابد من إعادة النظر فى مفهوم الربح فى النظام الاشتراكى وفكرة الحافز وعديد من المفاهيم الأخرى ، وقال إنه لا يزعم أن لديه حلولا للمشاكل والأسئلة التى يثيرها وإن كان يريد أن يقول إنه لابد من دراسة عميقة تواجه مشاكل التطبيق الاشتراكى فى الدول المتخلفة . ولقد عاب جيفارا على الدول الاشتراكية المتطورة علاقاتها التجارية مع الدول النامية والتى تقوم على أساس الأسعار الدولية فى السوق الرأسمالية فى شراء المواد الخام .

أما فيما يتعلق بمستقبل العلاقات بين كوبا وأمريكا على ضوء عزلة كوبا فى محيطها بامريكا اللاتينية فقد بدا جيفارا غير متحمس لمناقشة هذه القضية بمثل حماسه فى الاجابة على اسئلتنا عن التطبيق الاشتراكى ، وقال كلاما عاما مقتضبا ، الأمر الذى أثار دهشتى آنذاك .

ولكن عندما اذيعت أنباء مصرع جيفارا فى بوليفيا فى معارك حرب العصابات هناك عام ١٩٦٧ وعندما وصلتنى نسخة من كتاب «ثورة فى الثورة» لريجى دوبريه ، أخذت أتساءل بينى وبين نفسى إن كان جيفارا عند لقائنا فى منزل

إحسان عبدالقدوس كان قد وصل إلى قناعات بترك كوبا والذهاب إلى بوليفيا لقيادة حرب العصابات هناك ، وإن هذا هو طريق تأمين التجربة الاشتراكية فى كوبا وما إذا كان هذا الاقتضاب في الاجابة على اسئلتى شيئا مقصودا . بل وما إذا كانت الظروف الخاصة جدا التى أحاطت بنجاح ثورة كوبا قد جنت على فكر هذا الثائر الرومانسى الكبير ، وأغرته بمحاكاة هذه التجربة في الثورة فى ظروف بلدان لاتينية أخرى تختلف عن ظروف كوبا الخاصة .

وأخيرا ملحوظة خاصة ..

فقد يتساءل بعض القراء كيف استطاعت ذاكرتى أن تستوعب كل تفاصيل هذا اللقاء بعد عشرين عاما من وقوعه ولهؤلاء القراء أجيب على هذا السؤال المشروع بأن ذاكرتى لاتزال قوية نسبيا فيما يتعلق بالأحداث الهامة التى عشتها ، فضلا عن أننى استعنت بمقال ممتاز للاستاذ موسى صبرى - نعم الأستاذ موسى صبرى - كان قد كتبه فى عدد ١٧ مارس ١٩٦٥ من مجلة آخر ساعة عن هذا اللقاء الذى كان أحد حضوره .

للذكـــرى

منذ أيام مضت ذكراه السادسة عشرة ، وكان قد رحل فجأة وهو فى قمة حيويته ونشاطه الاكاديمى ، ووقع على خبر رحيله وقوع الصاعقة ، كنت يومها استاذا زائرا لجامعة لانكاستر فى الشمال الغربى لبريطانيا استعد للعودة إلى القاهرة أنا وابنتى الصغيرة حنان التى قضت العام الدراسى كله معى فى بريطانيا ، وكانت ترتيباتنا هى أن نذهب بالسيارة إلى فرنسا وايطاليا وأن نقضى شهر يوليو كله هناك حتى نصل إلى نابولى ، ثم نأخذ المركب إلى الاسكندرية من هناك .

وفى صباح يوم تلكأت فيه بالمنزل دق جرس الهاتف ، وكان المتحدث يتصل بى من روما ليعزينى فى المصاب عندما قرأ نبأ الحادث الذى أدى إلى الوفاة فى الصفحة الأولى من الأهرام ثم النعى فى صفحة الوفيات ، واشتد حرج هذا الصديق المتحدث من روما عندما أدرك أننى لم أكن على علم بالخبر !

وبسرعة اتصلت بأشقائى فى القاهرة هاتفيا فأكدوا لى صحة الخبر عن الحادث الذى وقع فى اليوم السابق . وسابقت الزمن لآخذ أول طائرة إلى القاهرة ، لكننى عندما وصلت كانوا قد واروه التراب وعادوا ، وكانوا قد تقبلوا فيه العزاء وانتهى الأمر .

إننى اتحدث عن شقيقى الاكبر المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس الذى كان عميدا لكلية دار العلوم مرتين وعضوا بمجمع اللغة العربية لمدة عشرين عاما ، وصاحب كرسى «فقه اللغة» بجامعة القاهرة وهو الرجل الذى كان له الفضل الأكبر فى تربيتى المدرسية ورعايتى حتى تخرجت فى الجامعة . وكان فارق السن بيننا كبيرا ، ربما يزيد على سبعة عشر عاما . فعندما تخرج فى دار العلوم عام ١٩٣٠ واشتغل بالتدريس كنت فى السابعة استعد لدخول المدرسة الابتدائية . وسافر هو بعد ذلك إلى بريطانيا فى بعثة حكومية للحصول على الدكتوراه ، فكان يرسل لى الخطابات المشجعة على مدرسة الحسينية الأبتدائية ثم على مدرسة فؤاد الأول الثانوية بعد

ذلك ، وهو بلاشك صاحب الفضل فى توجيهى لدخول «شعبة الرياضيات» فى السنة التوجيهية ومنها إلى قسم الرياضيات بكلية العلوم . وكان يعرف بالطبع اهتماماتى الأدبية والفلسفية ، كما كان يعرف محبتى للرياضيات ، وكان يقول لى دائما : « إنك تستطيع أن تواصل اهتماماتك الأدبية والفلسفية وحدك بالقراءة المثابرة ، لكنك لا تستطيع ذلك فى الرياضيات» ثم يضحك ويقول : « يا بنى الأدب لا يطعم أحدا هذه الأيام» ولم أندم على قبول نصيحته أبدا ، وظل إبراهيم أنيس بالنسبة لى أبا روحيا وبالتأكيد تفرقت بنا السبل عندما كبرنا واهتممت أنا بالعمل السياسى الذى كان قد فقد الاهتمام به منذ أن كان طالبا وفديا وشاعرا يلقى قصائده أمام سعد زغلول فى بيت الأمة ، ثم أمام مصطفى النحاس من بعده . لكنه ظل فى مكانة الوالد بالنسبة لى..

ولن أخجل من أن أقول إنه أحد أبرز حراس اللغة العربية فى العصر الحديث باعتباره لغويا رائدا أحدث ثورة حقيقية فى علم فقه اللغة بدءا من دراسة للهجة أهل القاهرة وانتهاء

بجهوده فى استخدام الكمبيوتر فى إحصاء تكرارات الحروف العربية .

ولا شك فى أنه يحسب له أنه أول من بشر بالمناهج العصرية فى دراسة أصوات اللغة مستعينا بالأجهزة الصوتية الحديثة ، وأثمر هذا كله كتابه الرائد «الأصوات اللغوية» وبعد ذلك صدرت له المؤلفات الآتية على التوالى : من أسرار اللغة العربية ، موسيقى الشعر ، فى اللهجات العربية ، دلالة الألفاظ ، وهو الكتاب الذى حصل به على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٥٧ ، مستقبل اللغة العربية المشتركة ، اللغة بين القومية والعالمية ، طرق تنمية ألفاظ اللغة (مجموعة محاضرات) .

كما كان له أربع مسرحيات منشورة وهى :

١ - العجوز المتصابى وقد كتبها خلال دراسته بكلية دار العلوم وأشرف على تمثيلها فى مسرح الأزبكية .

٢ - ايناس أو ضحية المجتمع .

٣ - المنصور بن عامر الاندلسى .

٤ - المتنبى فى مجلس سيف الدولة .

وقد نالت جهوده المتميزة فى خدمة اللغة التقدير لا على نطاق العالم العربى وحده وإنما على النطاق الدولى أيضا . وكانت هذه الحقيقة وراء اختياره فى مقدمة اللغويين الذين يؤرخ لحياتهم فى (معجم اللغويين العالميين) الذى تصدره جامعة «انديانا» بالولايات المتحدة .

وإبراهيم أنيس ليس فى الحقيقة غريبا على الكويت ، فهناك العديد من تلاميذه الكويتيين أيام دار العلوم ، وهم يشغلون اليوم المناصب المرموقة في الجامعة ووزارة التربية والتعليم أو فى الصحافة الكويتية ، وفضلا عن ذلك فقد دعته جامعة الكويت لمدة شهر استاذا زائرا حيث ألقى عددا من المحاضرات واستخدم الحاسب الآلى للجامعة فى متابعة أبحاثه اللغوية ، وعاد من هذه الزيارة بأجمل الذكريات التى حدثنى عنها ولم أكن آنذاك (فى أوائل السبعينيات فيما أذكر) قد زرت الكويت ولا عرفت أحدا من أهلها .

فى يوم ٨ يونيـــو من عـــام ١٩٧٧ خـــرج إبراهيم أنيس كعادته كل مساء يمارس رياضة المشى ساعة من الزمان ، وهو الرجل الذى يجلس إلى مكتبه فى صومعته بالمنزل ساعات طوالا بلا ملل ، وإذا بطالب ليبى مستهتر يصدمه بسيارته وهو يحاول عبور الطريق .

ونقل إبراهيم أنيس إلى مستشفى العجوزة القريب دون أن يعرف أحد من هو ، ووجد البوليس فى جيبه ورقة صغيرة واحدة بها رقم هاتف ، واتصل البوليس بصاحب الرقم الذى تبين أنه الدكتور كمال بشر عميد دار العلوم آنذاك ، وحضر الرجل وتعرف على الجثمان ، وأبلغ عائلته تليفونيا بالمصاب ، وفى اليوم التالى اتصل بى من روما هذا الصديق الذى ظن أننى على علم بالخبر ، وحاولت أن اشترك فى وداعه الأخير فلم افلح !

تحية حب وتقدير وعرفان بفضله فى ذكراه السادسة عشرة.

ذكريات مع على مصطفى مشرفة

فى الذكرى المئوية لميلاده

دخلت كلية العلوم بجامعة القاهرة فى أكتوبر سنة ١٩٤٠ وتخرجت فيها فى يونيو سنة ١٩٤٤ . وفى السنوات الثلاث الأولى والشهر الأول من السنة الرابعة لم يكن هناك أى اتصال شخصى بينى وبين عميد الكلية ، ورئيس قسم الرياضة التطبيقية الاستاذ الدكتور على مصطفى مشرفة .

كنت أحضر بالطبع محاضراته فى السنة الثانية وفى السنة الرابعة ، وكان آنذاك يحاضر فى علم الاستاتيكا فى السنة الثانية ، ويحاضر فى النظرية الكهربائية المغناطيسية للضوء والبصريات فى السنة الرابعة ، وكنا نحن طلاب الرياضيات ننظر إليه باحترام ومهابة شديدين، وكانت تنتشر فى أوساطنا نحن الطلاب أسطورة أن من يفهمون النظرية النسبية لاينشتين فى العالم عشرة بينهم واحد مصرى .. هو على مصطفى مشرفة .

ثم وقع حدث طلابى فى أوائل السنة الرابعة جعلنى على اتصال شخصى به طوال العام، هذا الحدث هو انتخابات الجمعية الرياضية الطبيعية لطلاب وأقسام الرياضيات والفيزياء التى تجرى كل عام وينتخب فيها طلاب كل صف من الصفوف الأربعة اثنين من الطلاب فى مجلس إدارة الجمعية لذلك العام ، وقد رشحت نفسى عن السنة الرابعة فانتخبنى زملائى ثم اجتمع مجلس الإدارة الجديد ، وأكرمنى زملائى فانتخبونى رئيسا لمجلس الإدارة عن العام الدراسى سنة ٤٣ - ١٩٤٤ .

وبعد انتخابى رئيسا للجمعية بدأت فى إعداد البرنامج الثقافى للجمعية ، أى سلسلة المحاضرات التى سيلقيها مختصون فى موضوعات رياضية وفيزيائية عامة تثير اهتمام الطلاب ، وحرصت بالطبع على أن أضع فى مشروع البرنامج محاضرة عن النظرية النسبية يلقيها على مصطفى مشرفة ، وعندما عرضت عليه الاقتراح لم يعارض وإن كان قد طلب تأخير موعدها .

وبالطبع ظللت على اتصال به طوال العام . وضمتنا ذكريات عديدة جميلة عن هذه الفترة سوف أفضى هنا بثلاث منها مازالت محفورة فى ذهنى .

– الذكرى الأولى تتعلق بطالب اسمه صالح كان زميلا لنا فى السنة الرابعة وإن تخصص فى الفيزياء ، وقد صار عميدا لكلية العلوم بالاسكندرية فى الستينيات .

جاءنى صالح فى أحد الأيام واقترح على أن يكون ضمن البرنامج الثقافى للجمعية محاضرة له فى الفيزياء ، ورفضت طلبه على أساس أن طالبا مثلنا لن يفيدنا بشئ جديد ، ولو فتحنا هذا الباب ، باب أن يقوم الطلاب بإلقاء محاضرات فى الجمعية فلن نقدم للطلاب جديدا ، ولم يقتنع صالح فذهب إلى عميد الكلية شاكيا موقفى .

أتذكر أن ساعى العميد جاء يبحث عنى وعندما وجدنى قال لى «الباشا يريدك على الفور» وذهبت إلى غرفة العميد ألهث من الجرى ، وعندما دخلت ولاحظ حالتى قام من مكتبه

وأخذ كرسيا ، ووضعه بجوار النافذة التى فتحها على الفور ، وقال : « نتكلم عندما تهدأ وتلتقط أنفاسك» .

وبعد خمس دقائق جاء وجلس على كرسى آخر بجوارى وقال لى «هل يرضيك أن يجلس الاساتذة فى الأتوبيس ، بينما الطلاب واقفون » وكان بطبعه يهوى الحديث بمثل هذه التشبيهات والاستعارات ، ورغم أننى لم أفهم المقصد من وراء هذا الكلام ، إلا أننى رددت على الفور : إن هذا وضع طبيعى إذ على الطلاب أن يقفوا فى الأوتوبيس احتراما لأساتذتهم ، فضلا عن أنهم أقدر على الوقوف لصغر سنهم .

ضحك العميد ضحكته المعهودة وقال : غلبتنى ! وتكلم فورا عن شكوى الطالب صالح وشرحت له وجهة نظرى التى وافق عليها مجلس إدارة الجمعية . لكنه قال : يا سيدى علشان خاطرى اعطوه فرصة . وواقفت طبعا لا اقتناعا وإنما احتراما لرغبة العميد .

– الذكرى الثانية تتعلق بمحاضرته عن النظرية النسبية ، إذ بدأت أتساءل : من الذى سيقدم العميد فى هذه المحاضرة

وقررت أن من الأنسب أن يقدمه واحد من الأساتذة وذهبت إليه مقترحا أن يتولى تقديمه أستاذنا د. محمد مرسى أحمد رئيس قسم الرياضة البحتة الذى كان له مودة خاصة فى قلبى ، لكن العميد رفض وقال : أنت رئيس الجمعية وأنت الذى تقدمنى للحضور . وبالطبع كنت خجلا من تقديمه ، لكنه صمم على ذلك وفعلت ما طلبه ، وأتذكر أن مدرج قسم الفيزياء حيث ألقيت المحاضرة كانت مليئا بالحاضرين من داخل الكلية وخارجها، وأن القضايا التى أثارتها هذه المحاضرة كانت ذات أثر كبير على الحاضرين وطال زمن المحاضرة والاسئلة إلى نحو ثلاث ساعات ، وهو أمر نادر الحدوث فى برنامج المحاضرات .

- أما الذكرى الثالثة فتتعلق بالصورة التذكارية التى كانت تؤخذ فى أواخر العام الدراسى لمجلس إدارة الجمعية مع رئيس شرف الجمعية والمستشارين ، ولا تزال هذه الصورة فى غرفة مكتبى بالمنزل حتى الآن .

والعادة أن هناك من يجلسون على دكة أعدت لهذه المناسبة ، وهناك من يقفون وراءهم . وقررنا نحن الطلاب أن

الأساتذة هم الذين يجلسون بينما نقف نحن الطلاب وراءهم . لكن على مصطفى مشرفة كان له رأى آخر إذ صمم على أن أجلس على الدكة فى وسط الصورة ويجلس الاساتذة على الجانبين ، وكنت فى أشد حالات الخجل وحاولت جاهدا أن أقف مع زملائى الطلاب فى الصف الخلفى ، لكنه صمم على رأيه وقال ضاحكا : أنت رئيس الجمعية وتستحق أن تكون مركز الصورة ، وهذا ما كان فعلا .

ولم أر على مصطفى مشرفة بعد تخرجى وتعيينى معيدا فى جامعة الاسكندرية ، ولكن ذكراه ظلت عزيزة إلى قلبى ، غالية فى نفسى . وأتذكر أننى عندما عملت رئيسا لشركة الكاتب العربى للطباعة والنشر عامى ١٩٦٧ و ١٩٦٨ كان كتاب «الجبر والمقابلة » للخوارزمى الذى قام بتحقيقه على مصطفى مشرفة ، ومحمد مرسى أحمد ضمن كتب الدار التى أعيد طبعها.

الباب الثالث

المثقفون والسلطة

فى أوردى أبو زعبل

رسالة إلى زوجتى

زوجتى الحبيبة: ها أنذا أرسل لك هذه الرسالة بعد غيبة طويلة منذ أن أرسلت لك خطابى خلال المحاكمة أيام المجلس العسكرى بالاسكندرية فى أكتوبر الماضى. ولقد مضى على خطابى هذا نحو عشرة شهور اجتزنا فيها تجربة طالت وكأنها عشر سنوات! أعنى تجربة الاوردى بما تعنيه من تعذيب يومى، وإهدار لآدمية المعتقلين، وعمل كالسخرة فى جبل أبو زعبل، ثم قتل لعدد من زملائنا. إنها باختصار بما صنعته النازية فى خصومها السياسيين فى معتقلات أوروبا المشهورة، ولم يكن لينقصها لتصبح الصورة مطابقة تماما غير غرف الغاز!

لقد انتهت هذه التجربة الآن وعدنا إلى آدميتنا من جديد.. ولعلك أدركت من خلال زيارتك لى فى الشهور الاخيرة مبلغ السوء الذى وصلت إليه حالتى الصحية. غير أنى اليوم أسترد صحتى بالتدريج فلا تقلقى. ولكن ما يقض مضجعى حتى

اليوم أن شهدى عطية، بمصرعه الفاجع فى الاوردى تحت سياط التعذيب، هو وحده الذى فدانا جميعا. ولولا مصرعه وما أثار من ضجة خارجية لاستمر التعذيب حتى اليوم ولاستطاب كثير من المسئولين هذه الحال ومن قبل قتلوا الدكتور فريد حداد ببساطة وكأنهم يؤدون عملا عاديا وهؤلاء القتلة معروفون ويعيشون بينكم لا يعذب أحدا منهم ضمير ولا تمتد إليه يد قانون!.

إن قتلة شهدى وفريد حداد هم اللواء اسماعيل همت وكيل مصلحة السجون والعميد اسماعيل طلعت مدير سجن أبو زعبل، ثم أولا وأخيرا الضباط حسن منير وعبد اللطيف رشدى ويونس مرعي. هؤلاء الثلاثة هم الجلادون المباشرون. ولكنى لا أشك أن وراء هؤاء يقف رجال المباحث العامة بقيادة حسن المصيلحى وبعض رجال وزارة الداخلية ولست أستطيع أن أصدق أن المسئولين فى مصر لم يكونوا يعرفون ما يجرى فى أبو زعبل خلال الفترة من نوفمبر سنة ١٩٥٩ إلى يونيو ١٩٦٠.

لا أدرى كيف أبدأ فى رواية القصة الإجرامية التى وقعت هنا. خلال هذه الفترة أرسلت لك عددا من الخطابات بمعرفة إدارة السجن ولعلك لاحظت أن كل خطاب لم يزد على ثلاثة سطور، أسأل فيها عن أحوالك وأحوال منى ووفاء وإخوتى وأطلب إرسال بعض النقود. لقد تعمدت هذا لأن الخطابات كتبت خلال أسوأ ظروف وإبان فترة التعذيب، ولم يكن لدى ما أقوله .. أو بمعنى أصح لم يكن ممكنا كتابة ما أريد أن أقوله!

* * *

لقد رحلنا من سجن مصر يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٩.. ولا أدرى إن كان لاختيار هذا التاريخ معنى خاص عند رجال المباحث. ولكنى أعلم أن إعدادنا لما كان ينتظرنا فى أوردى أبو زعبل قد بدأ ونحن واقفون فى فناء سجن مصر ننتظر الترحيل. فقد أخذ مأمور سجن مصر شوقى القطشة فى استفزازنا دون مبرر، وكسر بنفسه أشياء كثيرة من لوازمنا المتواضعة التى نحملها من سجن إلى سجن . وعندما وصلت العربة التى حشر فيها الواحد والستون إلى أوردى أبو زعبل

فوجئنا بفرقة من الخيالة على جيادهم، ثم صفين من الجنود يحملون العصى الغليظة على باب الأوردى وداخله وكانت التعليمات أن ينزل كل واحد منا بسرعة وأن يخلع ملابسه على باب الاوردى.. كل ملابسه حتى يصبح عاريا كما ولدته أمه، وأن يأخذ بسرعة برشا وبدلة سجن بيضاء ويهرع إلى العنبر. وكان أساس العملية هو المفاجأة الكاملة وشل الذهن عن التفكير حتى لا يجد إنسان فرصة ليحتج أو يناقش. وبطبيعة الحال لم يستطع معظم المعتقلين أن ينجزوا هذه المهمة فى سرعة وكانت النتيجة أن قام الجنود بضربهم وهم عرايا - بالعصى الغليظة فضلا عن الإهانات اللفظية.

وكانت مهزلة وما أبشعها من مهزلة ومع ذلك فإن «حفلة الاستقبال» كما واجهناها لم تكن شيئا بالمقارنة بـ«حفلة الاستقبال» التى أعدت لدفعة شهدى عطية فى يونيو الماضى، والتى مات فيها هذا الصديق العزيز.. فضلا عن الزملاء الآخرين الذين ظلوا فى حالة خطرة لعدة أيام بعد ذلك. وفى اليوم التالى لوصولنا بدأ روتين الحياة المعدة لنا .. نقوم فى

الصباح ونذهب ونحن حفاة فى طابور إلى جبل أبو زعبل لتكسير الأحجار، ويستمر العمل حتى الظهر حيث نعود إلى الاوردى ويقفل العنبر علينا حتى صباح اليوم التالى. والطعام الذى يقدم لنا هو أسوأ ما يتصوره إنسان فى حياته عسل أسود فى الصباح، فول نابت فى الظهر. ثم خضار لا طعم له وقطعة لحم تثير القرف فى المساء. وخلال كل يوم تقريبا ينتقى عدد من المعتقلين لاستفزازهم وضربهم ضربا مبرحا ووضعهم فى زنزانة انفرادية مغطاة بالماء البارد وبلا أغطية لمدة يومين أو ثلاثة. وكثيرا ما يفتح العنبر فى الصباح أو بعد الظهر، وفجأة تدخل فرقة من الجنود بحجة تفتيش العنبر، وكان علينا أن ندير وجوهنا إلى الحائط أثناء التفتيش ثم فى ختامه كان علينا أن نحنى ظهورنا كأننا راكعون فى صلاة ثم يدور كل واحد منا حول نفسه مرات ومرات حتى يأمر الضابط بالتوقف. وبالطبع خلال هذه العملية الهزلية يضرب الجنود عددا من المعتقلين كيفما اتفق، إنها عملية تثير الضحك وحتى الآن لم أفهم المقصود من هذه التعليمات.

كـان الجـو الظاهرى أننا نعـيش فى أبو زعـبل حـيـاة عسكرية، والجو الحقيقى المقصود هو التنكيل.. ومازلت أذكر أننا خرجنا مرة لطابور «رياضة» وخلال هذا الطابور طلب منا حسن منير أن نهتف باسم عبد الناصر وأن نغنى أناشيد وطنية. فلما اعترض الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله قائلا إننا لا نفعل هذا بناء على أوامر انهالوا عليه بالعصى حتى فتحت رأسه! وبطبيعة الحال كان لابد أن يأتى دورى ودور محمود العالم! وفى المرة الاولى عندما رفعت صوتى مبديا ملاحظات متواضعة على بعض ما يحدث، أخذت أنا وزميل آخر إلى الغرفة الانفرادية وبقينا هناك حتى جاء حسن منير مأمور الاوردى، فإذا به يعيدنا إلى العنبر دون عقاب. وكان لهذا الموقف فرحة وأية فرحة فى كل العنبر. فقد بدا وكأنه نصر لنا! وفى المرة الثانية لاحتجاجى أخذنا إلى جبل أبو زعبل ، وبدأ العدوان عليّ بشكل مكثف على يد فرقة من الجنود يقودها الصول مطاوع، واستمر الحال على ذلك حتى أغمى على من شدة الضرب. وحملنى زملائى على أكتافهم

وأنا في شبه غيبوبة إلى العنبر، ثم نقلت إلى غرفة «الملاحظة الانفرادية» المخصصة للمرضى، وبقيت فيها عشرة أيام بين الحياة والموت في الايام الأولى. ولقد كان من حسن حظي أن الطبيب الذي جاء لعيادتي كان زميلا لي في المدرسة الثانوية. وهالته حالتي في اليوم الأول حتى اغرورقت عيناه بالدموع تأثرا، وظل يواظب يوميا على التردد على مرتين ويحضر أدوية خاصة من عنده حتى اطمأن على حالتي. وبطبيعة الحال لم تكن الإدارة تدري أن الطبيب زميل سابق لي في الدراسة وأن هذا هو مصدر اهتمامه الكبير بي. وأحيانا كثيرة أحس أنني مدين بحياتي لهذا الرجل النبيل.

لن أطيل عليك أكثر من هذا.. سوى أن أقول لك إن من مبررات هذه المعاملة الوحشية التي قيلت آنذاك على لسان بعض الضباط هو موقف الزملاء الجرئ أثناء المحاكمة بالاسكندرية، فنحن كمجموعة لم نخف انتقادنا السياسي للحكومة ولسياسة عبد الناصر في قضيتي الوحدة

والديمقراطية. ولكننى لا أستطيع قبول هذا التبرير بسهولة، لأن قضية شهدى عطية (وكان من المعروف أن زملاء هذه القضية على عكسنا لا يخفون تأييدهم شبه المطلق لسياسة عبد الناصر آنذاك) قد لقيت على باب الاوردى استقبالا أتعس بكثير من استقبالنا، وأن شهدى نفسه قد ضرب حتى الموت، ولقد كنا داخل عنابرنا عندما وصلت دفعة شهدى. وبطبيعة الحال لم نر شيئا يذكر بأعيننا، ولكننا سمعنا كل شئ! فقد كان المطلوب من كل واحد منهم أن يهتف بسقوط الشيوعية وأن يذكر اسمه بصوت عال، وأن يقول «أنا مره».. الخ وعندما رفض شهدى وأخرون كثيرون تنفيذ هذه التعليمات المخزية انهالوا على رأسه بالضرب حتى الموت. ويبدو أن موت شهدى كان مفاجأة لاسماعيل همت وحسن منير والآخرين.

وإذا بهمت يستقل سيارته ويمضى هاربا إلى القاهرة، وإذا بحسن منير يضع الجبس على ذراعه مدعيا أمام النيابة أن المعتقلين هجموا عليه وضربوه وكسروا ذراعه، وأنه هو وجنوده كانوا يدافعون عن أنفسهم. بعد وفاة شهدى وما

أحدثته من ضجة جاءت النيابة بأعداد كبيرة، وتولت التحقيق صباحا ومساء.. وفجأة تغير جو المعتقل تماما! وقد طلبت أنا والدكتور اسماعيل صبرى عبد الله سماع أقوالنا فى مقتل شهدى، وأجابت النيابة طلبنا. وكان منظرا مخزيا للضابط حسن منير عندما أتوا به لتقوم النيابة بتجربة التعرف على صوته وأنا داخل العنبر كما ذكرت فى التحقيق، لقد رأيته كالفأر المتهالك، ولم يجرؤ على أن ينظر إلى ، بل كان مطرقا رأسه إلى الارض طوال الوقت وقد وضعتنى النيابة فى غرفة مقفلة وطلبت منه ومن ضباط اخرين أن يرفعوا صوتهم بجمل من التى كانوا يقولونها للمعتقلين فى حفلة الاستقبال «وفى كل مرة تعرفت على صوته فى يسر دون أن أراه وبطبيعة الحال نقل حسن منير فى اليوم التالى لوفاة شهدى حتى لايفتك بهّ المعتقلون!.

ان الضجة التى حدثت عند وفاة شهدى كانت أمرا طبيعيا ولكن الغريب أن الدكتور فريد حداد قد قتل داخل الأوردى قبل شهدى بشهور ولم تحدث وفاته ضجة ما!

انك تذكريـــن بالطبع الدكتـور فريد حداد، هـذا الطبـيب الشـهم الذى تولى عـلاجى وعـلاجك وعلاج عمتك قبل اعتقالى أكثر من مـرة. كم كـان وديعا، طيب القلب عظيم الإنسانيـة! تستطيعين أن تتصـورى صدمتى عندمـا أخرجنا من العنبر ذات يوم عند الغروب لاستـلام طعامنا ونحن نجرى كالعادة، ولمحت أمـام الزنزانة الانفـراديـــة رجـلا فى مـلابس السـجن ملقى علـى الأرض، وهو يبدو فى حـالة إغـمـاء لم أتيقـــن فى أول الامر من هـــو هذا الانسـان، وإن كنت واثقا أننى أعرفه. ثم بدأت أعى أن هذا هو فـريد حداد. ومع ذلك لم أتيقن آنذاك ان كـــان قد مات عندمـا رأيته أو أنه مغمى عليه فحسب. فلما سمـعنـــا فى اليوم التـالى أن أحد المعتقلين قد مـات. كـانت الصدمة بالنسبـــة لى فظيعة وبقيت فى حـالة نفسية سيئة عدة أيـــام.. ولست أشك لحظـــة أن يونس مرعى هو المسئول عن قتل فريد حداد، فقد كـان الضـابط الوحيد الموجود بالاوردى

عصر ذلك اليوم، وقد سمعنا - نحن في العنبر - صوته وهو يعتدى بالضرب على قادم جديد لم نكن نعرف من هو!.

إلى جانب هذا القتل والتعذيب ساءت أحوال المعتقلين الصحية وبسبب سوء التغذية، وكثيرون مرضوا وأوشكوا على الموت بسبب انتشار الامراض ولم يتحرك أحد رغم كل هذا، لقد عشنا في حالة مجاعة كاملة لمدة ثمانية شهور لا يعطونا الا ما يكفى للابقاء علينا على قيد الحياة فحسب.

أما مهانات العمل في جبل أبو زعبل فهي عديدة.. صفوة من مثقفي مصر مثل د. لويس عوض والدكتور عبد الرازق حسن، والكاتب المسرحي الفريد فرج، والرسام حسن فؤاد والناقد محمود أمين العالم، والدكتور فؤاد مرسى والدكتور فوزى منصور والدكتور اسماعيل صبرى عبد الله.. الخ وغيرهم كثيرون يساقون كل يوم إلى الجبل حفاة شبه عراة في أقسى أيام الشتاء لكسر حجارة أبو زعبل

بالإضافة إلى عشرات من القادة النقابيين وقيادات الطلاب.

ومع ذلك يجب أن أقول إننا تعلمنا حرفة مفيدة، وانني فى نهاية الامر أجـدت قطع الاحجار الى قطع صغيرة كما كان مطلوبا لرصف الشوارع، وكنت أحيانا أقول ضاحكا «صنعة فى اليد أمان من الفقر»! أما الامر الثانى الذى أردت أن أذكره لك فهو تجربتى المثيرة فى تدريس الريـاضيات العالية للصديق محمد عباس سيد أحمد فى ظل هذه الظروف السيئة ! لقد صمم محمد على اعطائه محاضرات داخل العنبر فى موضوعات كنت أقوم بتدريسها لطلبة البكالوريوس فى جامعة لندن في عامى ١٩٥٥ - ١٩٥٦. ولم تكن هناك سبورة أو طباشير أو ورق أو قلم وكان قد مضى على إعطائى هذه المحاضرات عامان على الاقل وكنت قد نسيت المعادلات والبراهين..... الخ ومع ذلك فقد كان لتصميمه وإلحاحه الفضل فى بدء محاولات التذكر.

وقد ظللت أسابيع أتعثر فى محاولات التذكر هذه، وفجأة بدأت خيوط الموضوع تعود، كأن شلة خيط كانت معقدة ثم حلت وانسابت الذاكرة صافية بكل تفاصيل البراهين كما كنت أعلمها للطلاب. ان العقل الانسانى غريب فى تخزينه للمعلومات وفى استرجاعها! والاغرب هو أن يتم ذلك فى مثل هذه الظروف القاسية، ولقد كان الصديق محمد يخفى فى ملابسه كل قطع الاحجار الطباشيرية التى يجدها بالجبل لنكتب بها على بلاط العنبر معادلات رياضية بالغة التعقيد ثم تمسحها بسرعة خوفا من أن نفاجأ بدخول الضباط أو الجنود إلى العنبر، وعندئذ قد يظنون أننا نكتب شفرة سرية؟

لقد انتهت هذه المرحلة .. بكل ما فيها من مهانات وتعذيب وأشياء قليلة إيجابية، واذا كنت قد صممت على كتابتها لك فلكى تعرفى كيف وصل بنا الحال فى مصر فى معاملة المعتقلين السياسيين، وكيف كان على أنا وزملائى أن نتحمل

هذه التجربة البشعة فى صبر وتماسك. وأحمد الله على أن كل هذا قد انتهى - وأرجو - إلى غير رجعة! ولكنى أظل أفكر فى شهدى وفريد كثيرا، وأفكر فى زوجتيهما وأولادهما.. ما أعظمها من خسارة وما أروعه من مثل!

أقبلك وأضمك بقوة.

«كامل»

سبتمبر سنة ١٩٦٠

الرسالة عن كتاب د. عبد العظيم

«رسائل الحب والحزن والثورة»

فى ذكرى زوجتى

هذا الكتاب ليس إلا مجموعة من الرسائل الحقيقية التى جرت بينى وبين زوجتى .. عايدة ثابت الصحفية المصرية، خلال فترة عصيبة من تاريخ مصر الحديث، وهى فترة كانت شديدة القسوة علينا نحن الاثنين.. إذ لم يكن قد مضى على زواجنا أكثر من شهرين عندما بدأت رياح العواصف العاتية!

أما الفترة فهى السنوات ١٩٥٩ - ١٩٦٤، وبالدقة من أول يناير سنة ١٩٥٩ إلى ٤ أبريل سنة ١٩٦٤.. بدأت باعتقالى كواحد من مئات الشيوعيين المصريين الذين اعتقلوا فجر أول يناير، وكنت قد تزوجت عايدة ثابت فى ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٨ بعد قصة حب دامت عدة شهور قبل الزواج. وعشنا نحو شهرين من أسعد أيام حياتنا حتى فاجأتنا عاصفة الاعتقالات فوضعت حدا لكثير من أحلامنا وآمالنا..!!

فصلت عايدة ثابت من عملها فى صحيفة «المساء» وإن لم تعتقل، كما فصلت أنا أيضا أثر اعتقالى .. وأصبحنا نحن الاثنان نواجه الحياه بلا مورد، أنا فى المعتقل وهى فى الخارج.

وقد يكون من الدقة أن أقول إن ما حدث لم يكن مفاجأة كاملة لنا بالمعنى المفهوم. كانت هناك نذر واضحة فى الشهور الاخيره عام ١٩٥٨ بتدهور الموقف السياسى العربى بعد الوحدة المصرية السورية، وتأزم العلاقات بين ثورة يوليو والاحزاب الشيوعية العربية. وكان الخلاف يدور اساسا حول قضية شكل الوحدة...

هل تكون اندماجية كما أراد حزب البعث السورى وجمال عبد الناصر. أم تكون فيدرالية يكون لكل قطر فيها حق تنظيم شئونه الداخلية وفق ظروفه الخاصة. وكانت القضية الاولى التى يدور حولها الصراع فى هذا النطاق هى قضية الديمقراطية السياسية التى كانت تتمتع بها سوريا قبل الوحدة. وقد كان من الطبيعى أن يتمسك الحزب الشيوعى السورى بتجربته الديمقراطية السياسية التى عرفتها سوريا منذ سنة ١٩٥٤، وكان من الطبيعى أن يرفض الحزب حل نفسه، بينما تظاهر حزب البعث بحل فصائله ظنا منه أن «غنائم» الوحدة هى له وحده!

في ظل هذه الظروف كان من الطبيعي أيضا أن تساند الأحزاب الشيوعية العربية موقف الحزب الشيوعي السوري، وأن يكون هذا هو موقف الشيوعيين المصريين كذلك.

لكن رغم بوادر العاصفة خلال عام ١٩٥٨ فقد كانت لدي ولدى غيري آمال في محاصرة النيران قبل أن ينفجر الموقف انفجارا يستحيل تدارك آثاره. وكان مصدر هذه الآمال ثقتي في وطنية نظام عبد الناصر وشعبيته، وانفجار ثورة تموز في العراق عام ١٩٥٨ التي اقتلعت كل دعائم النظام القديم ودمرته تدميرا، وموقف الاتحاد السوفييتي المناصر لثورة يوليو والعراق وقناعتي باستحالة استمرار نظام وطني في معاداة الامبريالية والقيام بحملة صليبية واسعة النطاق ضد الشيوعية في آن واحد وعشرات الاسباب الاخرى.

كل هذا ظل يمنحني الثقة بأن هناك أملا في رأب الصدع والعودة إلى علاقات التعاون التي كانت قائمة من قبل بين ثورة يوليو والاحزاب الشيوعية العربية. وبحكم عملي في

صحيفة «المساء» كمحرر للشئون العربية والخارجية فى الفترة ١٩٥٦ – ١٩٥٨ كنت على اتصال بكثير من أطراف الازمة، وعلى معرفة بكثير من أسرار هذه الفترة فى المجال العربى، وحاولت كما حاول آخرون المساهمة فى حل الازمة على اساس مبدأ صحيح.

لكن يبدو أن القوى المصرية والعربية المحافظة التى كانت تعارض محاصرة الأزمة كانت أقوى منا بكثير، وكانت النتيجة تدهور الموقف خطوة بعد أخرى وخصوصا أثر محاكمة بعض الضباط الناصريين فى بغداد واعدامهم، وساعدت على هذا حالة الزهو التى ركبت القيادة السياسية فى مصر معتمدة على شعبية عبد الناصر عربيا – وهى شعبية لم يكن هناك شك فى قوتها مما أدى بها إلى اعتماد سياسة «وحدنا فى الميدان» التى بدأت بمحاولة تصفية الحزب الشيوعى السورى ثم امتدت بعد ذلك لتصفية حزب البعث السورى، ولكنها انتهت فى سبتمبر ١٩٦١ إلى تصفية نظام عبد الناصر فى سوريا!

ومن الامانة أن أقول إن الاخطاء السياسية التى تورط فيها الحزبان الشيوعيان في دمشق وبغداد آنذاك قد ساهمت فى رأيى فى الوصول بنا إلى هذه النهاية الفاجعة لأول وحدة عربية في العصر الحديث، وان كانت المسئولية الاولى فيما حدث تقع فى رأيى على أكتاف القيادة السياسية فى مصر بما تورطت فيه هى من أخطاء سياسية وما تورطت فيه أجهزة أمنها من جرائم.

وليس بالصدفة أن الذين طعنوا الوحدة المصرية السورية الطعنة القاتلة فى سبتمبر سنة ١٩٦١ كانوا «أصدقاء النظام» أعنى الضباط السوريين الذين كانوا يعملون فى مكتب المشير عامر فى دمشق بقيادة النحلاوى مدير مكتبه. ولست أشك فى أن هذا العمل قد تم لحساب الرأسماليين والإقطاعيين السوريين الذين هددتهم اجراءات يوليو سنة ١٩٦١، ولكن يظل السؤال الحيوى قائما: كيف تم الانقلاب على الوحدة بهذه السهولة بل كيف انهار صرح الوحدة فى دقائق؟ ان الاجابة على هذا السؤال لا تكتسب أهمية تاريخية

فحسب وانما ترتبط بمستقبل النضال من أجل الوحدة فى المستقبل. وفى رأيى ان المفتاح الرئيسى فى هذه الاجابة يتمثل فى عداء نظام عبد الناصر للديمقراطية السياسية والجبهة الوطنية الذى أعطى أعداء الوحدة فرصتهم الذهبية.

لم يكن إذن ما حدث من اعتقالات فى فجر أول يناير سنة ١٩٥٩ مفاجأة كاملة لى، وان كان اتساعها وشمولها هو العنصر المفاجئ ، وينبغى أن أعترف أنه حتى بعد وقوعها ظللت فى الاسابيع الاولى ارجح أن الاعتقال لن يطول. وثبت خطأ هذا التقدير، وطال اعتقال الشيوعيين واليساريين المصريين، وامتد إلى ابريل سنة ١٩٦٤، أى انه طال خمس سنوات وثلاثة شهور!

وقد قضيت هذه الفترة الطويلة فى عدة معتقلات مختلفة.. بدأت بمعتقل القلعة ثم معتقل الواحات الخارجة، ثم عدت إلى سجن مصر استعدادا لتقديمى مع ستين آخرين إلى المحاكمة أمام مجلس عسكرى يرأسه مدير سلاح المدفعية اللواء هلال عبد الله هلال فى أكتوبر سنة ١٩٥٩

بالاسكندرية. وبعد المحاكمة عدنا من الاسكندرية إلى سجن مصر مرة أخرى، حيث نقلنا فى ٧ نوفمبر ١٩٥٩ إلى معتقل أوردى أبو زعبل.

وفى أوردى أبو زعبل جرت أول تجربة تعذيب جماعية على يد جهاز المباحث العامة وضباط مصلحة السجون.. وليس لدى شك فى أن هؤلاء الذين أشرفوا على هذه التجربة البربرية لابد أن يكونوا قد دربوا على يد بعض النازيين من الألمان، لأننى عندما زرت بقايا معتقل «يوخنفالد» فى ألمانيا عام ١٩٦٩ واستمعت إلى شرح الدليل وجدت تشابها غريبا بين ما كان يجرى فيه من أساليب تعذيب وبين ما جرى فى معتقل أوردى أبو زعبل!.. ولقد تولى قيادة هذا العمل الوحشى الذى سوف يرد وصفه فى صفحات الكتاب العميد حسن المصيلحى من جهاز المباحث العامة واللواء اسماعيل همت وكيل مصلحة السجون، وانتهت هذه التجربة بفاجعة قتل الصديق العزيز شهدى عطية فى يونيو سنة ١٩٦٠. وعندئذ تحركت الدولة لوقف التعذيب وإبعاد المسئولين

عن هذا العمل الاجرامى. ومع ذلك فلا يزال المسئولون عن قتل شهدى عطية ومن قبلــه الدكتور فريد حداد حتى الآن دون جزاء!

وبعد توقف سياسة التعذيب فى الاوردى نقلنا فى يوليو سنة ١٩٦١ إلى معتقل الواحات الخارجة، وبقينا هناك فى ظروف معقولة نسبيا حتى أفرج عنا فى ابريل سنة ١٩٦٤ إثر إلغاء الاحكام العرفية واقرار سياسة تصفية المعتقلات.

ومن الغريب أننى قدمت إلى المحاكمة أمام المجلس العسكرى بتهمة الاتصال بالاحزاب الشيوعية العربية، مع ان هذا الاتصال كان معروفا للمسئولين طوال عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٨ . باعتبارى محررا للشئون العربية فى صحيفة «المساء» كان الاتصال بقيادات هذه الاحزاب من صميم عملى، بل لقد نشرت اكثر من حديث صحفى فى «المساء» مع قادة هذه الاحزاب، فلم يكن هناك اذن شئ خاف على المسئولين فيما يتعلق بهذا الاتصال، ومازلت أذكر أننى كلفت من قبل المسئولين فى سفارتنا بالاردن وسوريا عام ١٩٥٧

بأعمال لم تكن من صميم عملى الصحفى ورضيت القيام بها عن طيب خاطر لانها كانت جزءا من صميم نشاط مصر التحررى فى المجال العربى آنذاك.

وضمن ذكريات كثيرة مازلت أذكرها مثلا أن الاحزاب الوطنية فى الاردن كانت قد دعت فى مايو ١٩٥٧ إلى عقد مؤتمر وطنى فى نابلس لمواجهة السياسة الرجعية للملك حسين. وقد حاول الملك أن يمنع قادة هذه الاحزاب من الوصول إلى نابلس بكل السبل، ومن بينها محاصرة كل الطرق الخارجة من عمان بنقط حراسة عسكرية. وقد تصادف وجودى فى عمان فى هذه الفترة الحرجة، وإذ بالملحق العسكرى لسفارتنا - الاستاذ فؤاد هلال يرجونى أن أخرج فى احدى سيارات السفارة ليلا ومعى بعض قادة الحزب الشيوعى والجبهة الوطنية متنكرين لانقلهم من عمان إلى القدس حيث يتولى القتصل المصرى فى القدس نقلهم من هناك إلى نابلس لحضور المؤتمر. وقبلت رجاءه بطبيعة الحال

ونفذت المهمة على ما فيها من مخاطر! ويشهد على هذه الواقعة الاستاذ فاروق القاضى الصحفى الذى صحبنى فى هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر.

لقد رويت هذه الواقعة حتى يدرك القارئ سخرية الموقف الذى كان على أن أواجهه أمام المجلس العسكرى متهما بأشياء يعلمها المسئولون وكانوا يرجون منى أداءها. وكان من الطبيعى أن ادلى فى تحقيقات النيابة بحقيقة الوقائع وتفاصيل الاحداث وان اطلب سماع أقوال عدد من المسئولين الذين كانوا من شهودها ، ولم يكن أمام المجلس العسكرى الا أن يحكم ببراءتى.

ولقد سبق أن ذكرت أن ظروف معتقل الواحات كانت معقولة نسبيا فى تلك الفترة بالقياس إلى ظروف المعتقلات الاخرى. فقد كانت هناك حرية فى الحركة داخل اسوار هذا المعتقل الكبير وكانت هناك مزرعة تبعد عن المعتقل بنحو ثلاثة كيلو مترات وكان فى مقدورنا الذهاب إلى المزرعة والعمل فيها

إذا شئنا. وقد استطاع المعتقلون بطرقهم الخاصة توفير مكتبة ضخمة من الكتب السياسية والادبية والعلمية والفلسفية والتاريخية، وأجهزة ترانزستور كانت هى صلتنا باذاعات العالم المختلفة وكانت المكتبة عونا كبيرا لهؤلاء المثقفين الذين طال حرمانهم على احتمال السجن وقتل وقت الفراغ. واستفدت انا شخصيا من هذه المكتبة أكبر استفادة إذ استطعت بتنظيم وقتى ان انجز خلال عام المسودة الاولى من كتابى «العلم والحضارة» الذى صدر عام ١٩٦٧، كما أمكن بالتدريج الحصول على المجلات الادبية والثقافية التى تصدر فى القاهرة، وكان هذا حافزا لنا لاصدار مجلة حائط أدبية كان لى شرف المشاركة في تحريرها.

ولم تكن صلتنا بالاهالى مقطوعة خلال هذه الفترة. فقد كنا مع المحكوم عليهم بأحكام قضائية فى مكان واحد ولم يكن يفرق بيننا الا لون بدلة السجن. وكان للمحكوم عليهم حق تسلم الخطابات من أهليهم وحق الزيارة مرة كل شهر، على عكسنا نحن المعتقلين اذ كنا بدون حقوق.

ولكن بعد فترة وبالتحديد خلال السنة الاخيرة من حياة المعتقل، استطاع المعتقلون التغلب على هذه الصعوبات.. أذ دبروا وصول خطابات ذويهم لهم عن طريق إرسالها بالبريد باسم أحد المسجونين ، كما استطاع أهالى المعتقلين زيارة ابنائهم بكتابة اسم أحد المسجونين على أورنيك الزيارة عند الوصول إلى باب السجن. وعند الدخول إلى غرفة الزيارة يجدون ابنهم فى انتظارهم! ومن الطبيعى ان ادارة المعتقل كانت على علم بهذا التحايل ، ولكنها كانت تغمض عينيها وتتصرف وكأنها لا تعرف شيئا!

فى ظل هذه الظروف استطاعت زوجتى أن تزورنى أربع مرات.. فى يوليو سنة ١٩٦٣، سبتمبر سنة ١٩٦٣، يناير سنة ١٩٦٤، وفبراير سنة ١٩٦٤. وجاءت هذه الزيارات بعد فراق أكثر من عامين. وفى ظل هذه الظروف تسلمت منها عددا من الرسائل يجد القارئ بعضها فى هذا الكتاب. وفى ظل هذه الظروف استطاع المعتقلون والمسجونون القيام بنشاط ثقافى واسع سيجد القارئ صداه فى بعض الخطابات المنشورة بالكتاب. فقد بنى المعتقلون مسرحا فى الهواء الطلق وأخرجوا

عددا من المسرحيات المعروفة ونشطت الفرق الرياضية فى كرة السلة وكرة القدم ... الخ.

كما اتسع النشاط والخلاف السياسى.. وعندما أتأمل اليوم هذا الجانب فمن الممكن القول إن الخلافات السياسية بين الشيوعيين المصريين كانت قد بدأت قبل يناير سنة ١٩٥٩. وكان محور هذه الخلافات هو الموقف من سياسة الحكومة عام ١٩٥٨. فبينما كانت الاغلبية ترقب هذه السياسة فى حذر وتحفظ وبنظرة نافذة لقضيتى الوحدة والديمقراطية، كانت مجموعة شهدى عطية تتخذ موقف التأييد شبه المطلق لسياسة عبد الناصر، كان هذا هو الموقف حتى يناير سنة ١٩٥٩، ولكن بدأت بعد ذلك الانقسامات والخلافات داخل صفوف الاغلبية فى المعتقل، اذ تورط قسم من هذه الاغلبية فى تحليلات يسارية خاطئة لسياسة وطبيعة قيادة ثورة يوليو وصلت إلى حد الترويج لنظرية رأسمالية الدولة الاحتكارية.. الخ. بينما ظل الجزء الآخر محافظا على نظرة واقعية لنظام عبد الناصر ... لاينكر عليه أصوله الوطنية التقدمية وان ظل

ناقدا للنظام لمواقفه غير الديمقراطية وموقفه الجامد من قضية الوحدة.

في الواحات اذن كانت هناك ثلاثة تيارات سياسية.. أحدها يكاد يقول إن الاشتراكية تتحقق بالفعل على يد عبد الناصر، والآخر يرى في عبد الناصر ممثلا للاحتكارات المصرية والاجنبية والتيار الثالث يرى في النظام علامات حكم فئات البورجوازية الصغيرة بكل ما فيها من مميزات ثورية كبيرة وتناقضات ومواقف معادية للديمقراطية..

ولقد كان طبيعيا أن تصدر مجلات سياسية في الواحات تعبر عن هذه التيارات الثلاثة وأن يشتد الصراع والجدل. وأحيانا كان يتحول إلى تهجمات شخصية اساءت إلى جو المعتقل اساءة بالغة. ولعل هذا الوضع كان أكبر محنة فكرية ونفسية اجتزتها في الواحات، وسوف يرى القارئ أصداء هذا في الخطابات المتبادلة بيني وبين زوجتي.

بعد هذه الصورة العامة أود ان أوضح عددا من الحقائق الخاصة بهذه الرسائل.. لقد ظل الاتصال بيني وبين عايدة

ثابت متصلا طوال السنوات الخمس، ولم ينقطع الا فترات وجيزة خلال فترة التعذيب فى أبو زعبل. وكثير من رسائلها وصلنى بالبريد، غير أن بعضها وصل عن طريق رسل شخصيين تطوعوا إما شهامة أو مقابل نقود أن يحملوا اليها خطاباتى أو يأخذوا منها خطابات لتسليمها لى. ولكنى لم استطع الاحتفاظ برسائلها فى السنوات الثلاث الاولى خوفا من التفتيش المفاجئ لنا داخل المعتقل، وما كان أكثره! واحتفظت فقط بخطاباتها خلال الفترة ١٩٦٢ - ١٩٦٤ ابان اقامتى بالواحات. أما رسائلى لها طوال السنوات الخمس فقد احتفظت هى بها فى عناية فائقة. وهكذا وجدت عند اعداد هذا الكتاب كل خطاباتى لها وبعض رسائلها لى..

ولعل هذا يفسر للقارئ ما سوف يلاحظه من أن رسائلها لى فى الكتاب لم تبدأ إلا فى عام ١٩٦٢.

ومع ذلك فالرسائل المنشورة ليست الا جزءا من الرسائل المتبادلة بيننا، ولم أختر من هذه الرسائل الا ما رأيت أنه ذو دلالة خاصة فى متابعة أحداث الكتاب. وبطبيعة الحال هناك

عشرات أخرى من الخطابات الشخصية التى لم أشر اليها فى الكتاب.

تبقى قضية التوقيع فى نهاية الرسائل... لقد كنت غالبا اوقع خطاباتى باسم «كامل» وليس هذا اسما سريا.. ان هذا هو اسمى الحقيقى فى اسرتى وبين أهلى عندما كنت صغيرا، وقد درجت العائلات فى زماننا على التقليد الغريب بأن يكون للمولود اسم فى شهادة الميلاد غير ماينادى به فى المنزل. أما هى فقد حرصت على التوقيع باسم «عنايات» خوفا من أن تقع الرسائل فى أيدى أجهزة الأمن، وكانت تنادينى باسم «سعد» فى هذه الخطابات لانها كانت مرسلة باسم المسجون الشيوعى الاستاذ سعد رحمى، ومكتوبة كأنها من شقيقته!

ولقد حرصت على نشر هذه الرسائل كما هى دون اضافة أو تعديل.. اللهم الا تصحيح بعض الاخطاء اللغوية أو اعادة صياغة بعض الجمل الركيكة مع الاحتفاظ بالمعنى كما هو، لاننى حريص على الاحتفاظ بالطابع التاريخى والانسانى - بكل جوانب قوته وضعفه - للرسائل.

ومع ذلك فلست أقصد من هذه الرسائل تأريخا لهذه الفترة الحرجة من تاريخ مصر.. إن هذا ابعد ما يكون عن ذهني، وان كنت أزعم أن هذه الرسائل تعطي القارئ صورة عامة سريعة عما جرى في هذه الفترة من تعذيب واحداث هامة ونشاطات مختلفة.

ان ما دعاني إلى نشر هذه الرسائل في هذا الوقت بالذات هو وفاة زوجتي عايدة ثابت، وما وجدته من تشجيع من عدد كبير من الاصدقاء - المطلعين على هذه الرسائل - على نشرها، ولم أقصد من النشر أن أقدم كتابا سياسيا في المحل الاول .

ولكني أود أن أوضح انني لست راغبا بهذا النشر في المشاركة في حملة التشهير التي يتعرض لها عبد الناصر، بل واسمه في السنوات الاخيرة من عناصر رجعية مقرونة بعدائها التقليدي للشعب واحتقاره، والتي تستهدف القضاء على كل المنجزات الايجابية لثورة يوليو.

وغنى عن البيان أننى كنت - ومازلت - مقتنعا بأن عبد الناصر هو استمرار حقيقي لعرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول... وإن كان استمرارا أرقى، وان الذى ينكر أن عبد الناصر هو أحد القادة المرموقين للنضال الوطنى والعربى ضد الاستعمار فى العالم الثالث فى العصر الحديث هو شخص اما مغرض أو سفيه! ولا أعتقد ان هناك شخصا واحدا على أى قدر من الموضوعية يستطيع أن ينكر قيمة التحولات الاجتماعية الهامة التى قادها عبد الناصر فى المجتمع المصرى.

وليس معنى هذا أنه لم توجد سلبيات هامة ولم ترتكب أخطاء وجرائم فى ظل عبد الناصر، لقد سبق لى أن أوضحت رأيى تفصيلا فى هذه السلبيات، وجوانب القصور فى فكر الثورة واعمالها فى «محاورات اليسار المصرى مع توفيق الحكيم» . «وقد نشرتها دار القضايا البيروتية منذ عام».

والاكثر من هذا اننى وآخرين كثيرين حاولنا أن ننبه عبد الناصر والنظام عموما - إلى خطورة هذه السلبيات فى حينها وعندما وقعت ! وجاء هذا التنبيه على صورة مقالات

ومطبوعات وخطب انتخابية (سنة ١٩٥٧ عندما كنت مرشحا بدائرة الوايلى) ورسائل من بعض المثقفين رفعت إلى عبد الناصر من خلال أصدقائه والمتصلين به. وربما دفعنا ثمنا باهظا لهذا النقد فى وقت كان معظم قادة حملة التشهير الحالية يسبحون بحمد عبد الناصر ويعلنون تأييدهم الاعمى له بالحق وبالباطل!

ولان عبد الناصر كان ولى نعمة كثير من قادة حملة التشهير التى تبلورت فى السنين الاخيرة. فان الانسان لا يملك الا أن ينظر باشمئزاز وازدراء إلى كثير من قادة هذه الحملة الذين تعودوا أن يأكلوا على كل الموائد!

ان هذه الرسائل اذن لا تستهدف التشهير وانما تحكى أولا وأخيرا قصة حب وصمود بين زوجين شابين مشتغلين بالعمل السياسى ادركتهما اعاصير الحركة السياسية بمحنة اعتقال الزوج أكثر من خمس سنوات وتشريد الزوجة طوال هذه الفترة ومع ذلك فقد استطاع هذا الحب أن يصمد للاختبار.

ولهذه القصة الإنسانية جانب آخر لا يخفى على القارئ، ان العواطف الملتهبة التى تبدو فى هذه الرسائل ليس مصدرها فقط أنها رسائل زوجة كانت فى الرابعة والعشرين من عمرها وزوج كان فى الخامسة والثلاثين من عمره بكل ما يعنيه هذا من التهاب العواطف وتأجج الاحاسيس بين عاشقين، وانما مصدرها ايضا رباط فكرى قوى ظل يقرب بيننا ويبعث الدفء فى حياتنا على طول السنين فى ظل الحرية. وبامتزاج هذا الرباط الفكرى الاشتراكى بالحب الانسانى تولد لدى كل منا احساس عميق بأنه لا يستطيع الاستغناء عن الآخر. وربما جرى بيننا بين الحين والاخر ما يجرى بين كل زوجين من مشاحنات صغيرة، ولكن ظل هذا الشعور الجارف قويا دائما وفى كل الظروف.

لكن عايدة ثابت ماتت فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٧٥ اثر فاجعة مروعة لم يقدر أى منا انها سوف تنتهى إلى هذه النهاية، ولقد افاضت الصحف والمجلات المصرية والعربية فى ذكر الحادث الذى أدى إلى الوفاة وان كانت قد ذكرت بعض

التفاصيل غير الصحيحة. ولذا يكفينى هنا أن أذكر الوقائع الأسياسية للحادث وتطوراته.

فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٧٥ كنت عائدا بالطائرة من روما حيث حضرت اجتماعا للخبراء الاخصائيين لمنظمة الاغذية والزراعة الدولية. وذهبت زوجتى وابنتى حنان لانتظارى كالعادة فى المطار وقبل وصولى بربع ساعة هاجم كلب ضال ابنتى حنان وعقرها فى قدمها اليسرى، واندفعت زوجتى تدافع عن حنان فهجم الكلب عليها وطرحها على الارض حيث عقرها فى ساقها الايمن وكفها الايمن أيضا. ولقد ذهبا إلى مستشفى منشية البكرى فورا حيث جرت الاسعافات الاولية. ثم بدأت المستشفى فى اليوم التالى حقن زوجتى وابنتى بالمصل المضاد لمرض الكلب لمدة عشرين يوما أى من ١٨ أكتوبر حتى ٥ نوفمبر. وبدأ تحسن واضح من العلاج، الامر الذى دفع زوجتى إلى العودة إلى عملها الصحفى فى اليوم الخامس عشر من الحادث، وبناء على مشورة الاطباء، ولقد ساعد على خلق جو الاطمئنان الكاذب بيننا جهلنا

الكامل بأعراض المرض، وماقاله أطباء مستشفى منشية البكرى ومستشفى الكلب والاطباء الخصوصيون من أن المصل مؤكد المفعول ومن أن أعراض المرض - ان بدت - فإنما تظهر في اليوم الحادي عشر من الحادث ولما مضي اليوم الحادى عشر حتى الثامن عشر دون تعقيدات أو شكوى شاع الاطمئنان فى نفوسنا . وسافرت يوم ٦ نوفمبر بعد انتهاء العلاج لحضور مؤتمر لليونسكو العربى فى قطر، وليس يخطر على بالى أن وداعها لى على باب منزلنا هو الوداع الاخير!

نعم لقد شكت ليلة سفرى من ألم في ذراعها الايمن، ولكن ما اسهل ما نسينا - نحن الاثنان - هذا المجهود الذى بذلته فى كتابة مقالاتها بيدها اليمنى اثر عودتها إلى العمل الصحفي، فضلا عن شكواها منذ سنوات من آلام روماتيزمية فى ذراعيها وقدميها.

الاغرب من ذلك انني تحدثت معها تليفونيا من قطر قبل وفاتها بأربع وعشرين ساعة ولم تكن تشكو الا من ألم شديد

فى ذراعها الأيمن، لقد بدأت التعقيدات الصحية خلال الاربع والعشرين ساعة الاخيرة لها، وتدهور الموقف فجأة ودخلت فى غيبوبة ثم فاضت روحها الطاهرة فى صباح الاثنين ١٠ نوفمبر !

لقد ماتت عايدة ثابت فى أنضج سنوات حياتها .. وبعد أن بدا أن القدر قد ابتسم لنا بالبيت السعيد والابنة التى هى قرة عين والديها، جاءت هذه الفاجعة الخاطفة لتخنق آمالا مزدهرة فى حياة سعيدة طويلة لنا نحن الثلاثة. وهكذا شاء القدر أن يحرمنى وابنتى من أعز وأحب من كان لنا فى الحياة!

كانت عايدة ثابت انسانة بكل معنى الكلمة.. رقيقة كالنسيم، باسمة كالزهور، فى دماثة الكلمة الطيبة، وكانت دائما قادرة على أن تشيع فى كل من حولها روح البهجة والسرور مهما كانت الظروف. تصدق عليها كلمة الكاتب الامريكى مارك توين حين قال فى «يوميات حواء» مشيرا إلى زوجته «اينما حلت كانت هناك جنة»!

ولكن عـايدة ثابت كـانت شـجـاعـة أيضـا خـصـوصـا فى الدفـاع عن المضـطهـدين والمظلومين والفـقـراء، إلى الحـد الذى قـد يعـتـبره الناس تـهورا. كـانت تكره الظلم والاضطهـاد إلى أبعد الحدود، وكان قلبها دليلها فى هذا الميدان، تصدق عليـها أيضا كلمة تولستوى حين وصف مكسيم جوركى بأنه صاحب «القلب الحكيم» لقد كان قلبها هو دليلها إلى الحكمة، لأنه كان يتـسع لمـحـبـة الآخـرين وينشـغل بالآخـرين قـبل أن ينشـغل بشئونها!

ولقـد بدا لى دائمـا أن عـايدة ثابت والموت شـيـئـان متناقضان، لانها كانت على الدوام للحياة.

فما اقسى الحياة بعدها على الذين عرفوها جيدا واحبوها من صميم قلوبهم!

عبد العظيم انيس

العـــــودة

بعد أيام من وصول خطابها الاخير، وبالتحديد فى ٣ أبريل سنة ١٩٦٤ تم ترحيلى مع آخرين من زملائى إلى السجن الحربى بالقاهرة.. نقلنا بالسيارات إلى سجن أسيوط حيث بقينا فى فنائه عدة ساعات، وفى مساء نفس اليوم أقلنا بالقطار إلى محطة الجيزة حيث وصلناها الساعة السابعة من صباح يوم ٤ أبريل . ومن محطة الجيزة نقلتنا سيارات وزارة الداخلية إلى السجن الحربى.

خلال ساعات الليل التى قضيناها فى قطار أسيوط - الجيزة حاولت أن أنام وفشلت من طول الارهاق وشدة الانفعال.. هاأنذا اعود مرة أخرى إلى زوجتى وأولادى وأهلى وشعب مصر، هاأنذا أعود من جديد إلى أرض الوطن!

لكأنما كنت منفيا خارج البلاد، رغم أنى أعلم علم اليقين أن أرض الواحات الخارجة هى جزء لا يتجزأ من أرض الوطن.. لعل هذا يثبت مرة بعد مرة ان الوطن ليس هو الرمال والشجر والارصفة والمبانى، وانما هو الناس..

الفلاحون والعمال والطلاب والمثقفون والجنود وكل من يضع لبنة فى حاضر مصر ومستقبلها!

هاأنذا أعود من جديد فأشرب من ماء النيل بعد أن حرمت منه سنوات، وأمتع عينى بخضرة الوادى، وحقوله السندسية امتع أذنى بأصوات أولاد البلد وضحكاتهم.

أحسست فى القطار بمشاعر شديدة الشبه بمشاعرى يوم عودتى من البعثة عام ١٩٥٢، لحظة اقتراب السفينة من شاطئ بورسعيد . لم أكن أعرف واحدا من المنتظرين على الشاطئ ولكنى كنت تواقا إلى احتضانهم جميعا كأنما هم جميعا أهلى واخوتى، وعندما نزلت إلى الشاطئ وقابلنى أول حمال ابتسمت فى وجهه ابتسامة عريضة وشددت على يده مرحبا كأنما نعرف بعضنا البعض منذ زمان طويل. وأغلب الظن أنه نظر إلى فى دهشة لا يفهم لهذه التحية الحارة سببا!

حاولت اذن أن أنام فلم أفلح، فشغلت نفسى بنظم قصيدة بالعامية تعبر عن مشاعر هذه اللحظة . ودخلنا

السجن الحربى حوالى الساعة التاسعة صباحا. القيت نظرة على فناء السجن.. سجن ككل سجون الدنيا يبدو عاديا فى مظهره مع أننا كنا نسمع طوال السنوات الخمس عن التعذيب الذى يجرى فى داخله ما يقشعر له البدن. ورأيت كلبين فى فناء السجن يتسكعان فى تكاسل من قلة العمل فيما يبدو!

كانت ابتسامات ضباط المباحث العامة فى انتظارنا، وشئ غير قليل من الأدب واللياقة فى المعاملة.. قالوا لنا اننا سوف نكون فى بيوتنا بعد ثلاث ساعات عندما ينتهون من ملء استمارات البيانات اللازمة وتصوير كل واحد منا!

وسألت ضابطا لا أعرف اسمه - وان بدا أنه يعرف اسمى - ان كان فى استطاعتى أن أتحدث مع اخوتى تليفونيا لاخبرهم اننى بالقاهرة وأننى سأكون معهم بعد ساعات، فرحب بطلبى على الفور. وكانت الصعوبة الاولى أن أتذكر أرقام تليفونات منازل اخوتى بعد هذه الغيبة الطويلة، ولكنى تذكرت رقم تليفون شقيقتى فاطمة فى العباسية وأدرت القرص فلم أجد ردا وضحك الضابط قائلا ان أرقام تليفونات العباسية قد تغيرت خلال هذه السنوات. حاولت أن اتصل

بشقيقتى فتحية فى الدقى، وجاد صوت زوجها واضحا يسأل: من المتكلم؟ وعندما أجبت صرخ الشيخ الكهل - كأنما مسته صاعقة - مناديا على شقيقتى. وجرت إلى التليفون وهى تصرخ وتضحك وتزغرد وتبكى فى آن واحد لا تريد أن تصدق. كأن من الضرورى أن اضبط عواطفى وأن أطلب منها بسرعة ان تتصل بعايدة وأن تعرف العائلة اننى سأذهب إلى منزل شقيقتى فاطمة فى العباسية وأن عليهم أن ينتظرونى هناك. ولم أعطها فرصة أكثر من ذلك ووضعت السماعة خوفا على نفسى من الانفعال !

ولا أعرف ما حدث بالضبط بين أخوتى بعد هذه المكالمة، ولكنى علمت بعد ذلك أن وفدا من العائلة ظل ينتظرنى أمام الباب الامامى للسجن الحربى من العاشرة صباحا حتى الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم!

أما أنا فقد فتح لى - ولثلاثة من زملائى - الباب الخلفى للسجن الحربى فى الساعة الرابعة بعد الظهر تماما وقيل لنا: انصرفوا !

وخرجت إلى دنيا الحرية.. على جسدى سترة قديمة كانت ملقاة فى مخازن سجن الواحات سنوات، وفى يدى كيس ممزق من القماش به حاجيات الحلاقة ومعجون وفرشاة أسنان وغيار داخلى وكتاب عن موسيقى الشعر وآخر فى المنطق وبعض ابحاثى القديمة فى الرياضيات، وفى جيبى ورقة بخمسة جنيهات هى كل ما أملكه فى هذه الدنيا.

ومن السجن الحربى دلفت فى دقيقة إلى طريق صلاح سالم .. شارع واسع لا أعرف عنه شيئا لانه أنشئ خلال غيابنا. أين أنا بالضبط فى القاهرة؟ لم أكن أدرى.. حاولت أنْ أوقف تاكسيا فلم أفلح.. وعندما جاء أول أتوبيس ركبتْ وليس فى ذهنى أية فكرة إلى اين يذهب! سألت الكمسارى: إلى أين يذهب هذا الاوتوبيس فنظر إلى شذرا - وكأننى من أهل الكهف - وقال : أين تريد أن تذهب ؟ قلت العباسية، فأجاب : نحن فى العباسية !.. اعطيته الورقة ذات الجنيهات الخمسة فنظر إلى فى امتعاض وقال: مافيش فكة، قلت : ليس

فى جيبى مليم آخر وبدا عليه الضيق وفى عينيه تساؤل كأنما يقول لنفسه: من أين هؤلاء الناس ! آه لو يعرف.

وتركنى يائسا.. ووجدت بعد ثلاث محطات اننى عند باب كلية الهندسة جامعة عين شمس نعم، هذا مكان أعرفه ويعرفنى لاننى قمت بالتدريس فيه منذ سنوات. وقفزت من الاوتوبيس فى عجلة وركبت أول تاكسى صادفته وأعطيت السائق العنوان وبدا على السائق الدهشة.. فالمسافة صغيرة لا تستحق ركوب تاكسى ولكنى أصررت..

وعندما ارتقيت درجات العمارة - متجاهلا المصعد - فى سرعة وضغطت على جرس الشقة لم يكن فيها غير شقيقتى وابنة عمى وأمها. أما الباقون فقد كانوا هناك.. عند الباب الامامى للسجن الحربى ينتظرون! كانت شقيقتى تنتظر عودة صبى المكوجى بالفساتين التى أرسلتها للكى فى هذه المناسبة، وذهبت ابنة عمى تفتح الباب فى تثاقل للمكوجى الصغير فوجدتنى أمامها، واذا بها تقع على الارض مغشيا عليها!

ثمة لحظات شديدة القسوة من شدة الانفعال فى حياة كل انسـان، وتلك كـانت احـدى هذه اللحظات فـى حـيـاتـى. لست أذكـر مـاذا فـعلت بالضـبط ولا مـاذا فـعلوا وقـالوا لى، ولـكنى مـازلت أذكـر أننـى ظللت لدقـائق أسـمع أصـواتا غـامـضـة متضاربة متناقضة كأننى فى حلم رهيب، لا أفسر منها شيئا!

وعندما هدأ كل شئ عرفت أن عايدة ثابت بالاسكندرية فى زيارة لخالها، وأن أولادى، أيضا خارج القاهرة.

لكنها عادت في المساء ، وكان لقاء .. وأى لقاء!

قال: من؟
قالوا: سليمان الحلبى

ليغفر لي الصديق الأديب ألفريد فرج اقتباس هذا العنوان من مسرحيته «سليمان الحلبي» التى مثلت على المسرح القومي في الستينيات بنجاح هائل - فحتى اليوم - بعد ما يقرب من عشرين عاما على هذا الحدث الفنى الكبير - مازلت أذكر بعضا من مشاهده وكأنني رأيتها بالأمس فقط !

كان المشهد الذي هزني بشكل خاص هو مشهد ذهاب سليمان الحلبي مع صديقه محمد المصرى - وهما من أبناء الأزهر وتلاميذ أساتذته المخلصين حقا لطريق الرب - يحاولان مقابلة الشيخ عبدالله الشرقاوى . وسليمان لم يكن يملك إلا أن يقارن في عقله القلق وضميره المعذب بين موقف الشيخ الشرقاوى الذي قبل أن يهادن المحتل الفرنسي بونابرت «سارى عسكر الفرنسيين» ويدخل عضوا في ديوانه، وبين موقف مولانا الشيخ السادات الذي آثر السجن على مثل هذا الموقف . ومحمد يحاول جاهدا أن يثني سليمان عن زيارة الشرقاوى ، لكن سليمان يصر ويقول لصديقه «علمني

الشـرقـاوى فـأضـنـانـى بالقلق المبـارك أيكره أن أهديه بـعض وساوس المروءة ؟» .

فلما نادى المنادى باسم سليمان الحلبى فى منزل الشيخ الشرقـاوى ، بهت الشيخ العـجوز يسـتعـيذ بفطنتـه أن تهديه لسـبب هذه الزيارة المفاجئة فـيتـهيـأ لها بما يناسبـها من التـحـفظ أو الترحـاب ، لكن فطنتـه لم تسـعـفه ، فـقـال : من ؟ قالوا : سليمان الحلبى ! .

وقـال الكورس في المسـرح : سليـمـان الحلبى ، سليـمـان الحلبى ، سليمان الحلبى ، اسم ليس له رنين نعرفه ، لا رنين الذهب الابريز ولا رنين الفـضـة الصـافـيـة . ولا رنين البـرونز المدوى ، ولا الصفيح الجعجاع . ذلك أنه عملة جديدة لم يخبر رنينهـا بعد سلطان أو شحـاذ ، شـاعر أو مبدع ، مستـعمر متـأله ، أو عبد ذليل ، رنين سوف يدهش العقول فـيمـا بعد ويطيش الصواب ، «بهت له الرجال وصرخت النساء ، تصدت له الأبطال وتصدت به الأبـطال ، أطلقه الحب ورجعه الحقد ، وهكذا صهرته نوازع العار ونوازع الشرف . ولم يكن أحد قد اختبره بعد أو تخيل معدنه » .

وها نحن من جديد - بعد نحو مائة وخمسين عاما - نشهد فى المشرق العربى سليمان آخر جديد ، له أسماء عديدة على وجه اليقين ، فهو أحيانا يعرف باسم سليمان النابلسى أو سليمان المقدسى، أو سليمان المغزى وأحيانا أخرى يعرف باسم سليمان البيروتى أو سليمان الطرابلسى ، وهو اليوم يعرف باسم سليمان الصيداوى .

إنه لا يتحرك وحده ، وإنما يتحرك كالطيف فى جبال لبنان وشعابها وسط مجموعة صغيرة ، وهو لا يحمل فى يده خنجرا ، كما كان يحمل سليمان الحلبى ، وإنما يحمل فى يده مدفع كلاشنكوف وعلى كتفه صاروخ أو يقود سيارة مليئة بالمتفجرات وهو يتجه إلى قاعدة من قواعد الاحتلال الصهيونى أو الامبريالى...

الآن يعرف العالم العربى ولا يجهل رنين هذه العملة الجديدة ، إنه رنين الذهب الابريز ، والآن خبر السلاطين المتواطئون والاستعماريون المتألهون والصهاينة المتجبرون رنين هذه العملة الجديدة . وبسببها خرجت قوات الاحتلال

الامـريكى من بيـروت وانسـحب الاسطول السـادس وبدأ الصهاينة يبحثون عن مخرج ، وفزع المهادنون والمتواطئون كلما سمعوا رنين هذه العملة الجديدة، لأنهم يحسون في قرارة أنفسهم أنها سوف تصوغ المستقبل البعيد للوطن العربى مهما كانت التضحيات والآلام .

وكما فرز سليمان الحلبى موقف الشيخ الشرقاوى المهادن عن موقف الشيخ السادات المتمرد ، كذلك يفعل سليمان الحديث . فيفرز الناس إلى جانبين : جانب القابلين بالمهادنة مع الأجنبى المحتل ، وجانب المتمردين المصممين على دحر الاستعمار والصهاينة وطردهم بقوة السلاح .. جانب الراضين بالتسوية فى ظل الضعف لأنها تحقق مصالحهم الخاصة ، وجانب الذين ترتبط مصالحهم الاجتماعية بتحرير الأرض وانتشار العدالة وإعلاء قيمة العمل .

وكلما سقط سليمان واحد فى جنوب لبنان أو فى فلسطين، ظهر عشرات بل مئات يحملون اسم سليمان ، لا أحد يعرف على وجه الدقة وجوههم ، وبعضهم يولد ويحمل سلاحه

ويحارب ثم يسقط فى المعارك دون كلمة واحدة .

لكننا فى العالم العربي نعرف رنينهم بأنه ليس رنين الصفيح الجعجاع !

وكما ثار سليمان حلبى على الذين دعوه ألا يركب أجنحة الشطط وينسى قيمة الحياة وقال لهم : « وهزيمة أمة كريمة .. ما قولك .. أن نلبس العار ونأكل الندم ، وعندئذ يصبح الجحيم نظام حياة .. قدم رجولتك للمهانة وأطفالك لأنياب الجوع وعنق جارك للمشنقة .. اركع وادفع ! وعش لتتحول بفعل الساحر الفرنسى الأسود من رجل إلى كلب .. واسجد لغير الله ما تشاء ، وأرق ماء وجهك وعينيك ما تشاء ، فقد منحك كليبر سارى عسكر الفرنسيين أمان الحياة» .

كذلك يقول سليمان الحديث ، وأكاد أسمع صوته الهادر :

«وصبرا وشاتيلا، والمستعمرات الصهيونية فى الضفة ، والتخطيط لاحتلال جنوب لبنان بجيوش العملاء من أمثال أنطوان لحد ، والأسلحة الامريكية لإسرائيل ، والحلف الاستراتيجى بين الصهاينة وواشنطن ، ومشروع ريجان الذى

يهدم حق تقرير المصير .

ما قولك : أن نلبس العار ونأكل الندم فى ظل تسويات هى والاستسلام سواء . وعندئذ يصبح الجحيم نظام حياة .

ويعلو صوت الصفيح الجعجاع!

فكم بكينا دمعتين ووردة!

حين طويت آخر صفحة من كتاب فريدة النقاش الجديد (السجن - دمعتان ووردة) أخذت أسأل نفسي : لماذا أقبلت على قراءة الكتاب بهذا النهم الغريب مع أن عالم السجن ليس جديدا بالنسبة لي وعلى كثرة مشاغلي في هذا الموسم من السنة الاكاديمية ؟

هل يكفي أن أقول إن صداقتي لفريدة هي السبب ؟ لا أعتقد هذا سببا كافيا ..

قلت : ربما كان السبب أن عالم سجن النساء هو الجديد وربما كان السبب الأهم أن هذا الكتاب هو أول شهادة أقرؤها لمناضلة مصرية عن السجن مع كثرة شهادات الرجال الذين دخلوه لأسباب سياسية بدءا من كتاب العقاد (في السجن) وانتهاء بكتاب فتحي عبدالفتاح (شيوعيون وناصريون) وكتابي (رسائل الحب والحزن والثورة) .

نعم .. هذه اذن فريدة النقاش المناضلة والأم والزوجة والصحفية تدلي بشهادتها عن السجن الذي قضت فيه نحو شهرين في أغسطس ١٩٧٩ عندما اقتادوها هي وزوجها

حسين من مصيف جمصة ثم أعيدت إليه مرة أخرى فى ٣١ مارس ١٩٨١ وقضت فيه نحو تسعة أشهر .

تم هذا كله فى مرحلة من أخطر مراحل مصر الحديثة مرحلة الردة الساداتية عندما خان نظام السادات كل تراثنا السياسى والوطنى والثقافى، وأدار ظهره لمصالح هذا الوطن وتلك الأمة وداس باسم السلام كرامة الشعب وشهداءه بأحذية الغزاة الصهاينة والامريكيين، عندما زيف الاستسلام فقيل إنه السلام .. أو بمعنى آخر عندما تمت خيانة كل التراث النضالى لثورة عرابى وثورة ١٩١٩ وثورة يوليو المجيدة تحت أعلام كامب دافيد .

كانت التهمة التى وجهت إلى فريدة النقاش هى عضوية الحزب الشيوعى المصرى لكن كان ذلك شكلا لا أكثر ولا أقل، أما المضمون الحقيقى للتهمة فهو نشاطها ونضالها فى صف القوى الوطنية المصرية التى وقفت - دون حساب للربح أو الخسارة - ضد هذه الردة السياسية ضد الاستسلام وخيانة مصالح المواطن ، فقالت ضمن آلوف : لن يمر الصهاينة من

هنا ونحن فى القاهرة وهى لاتزال صامدة فى هذه المعركة الحاسمة معركة نكون أو لا نكون : لم تطو اعلامها ولم تنزو فى ثياب الحداد !

عندما نقفل آخر صفحة من كتابها يأتينا من بعيد صوت فنان الشعب اللبنانى مارسيل خليفة وهو يغنى قصيدة الشاعر العربى:

أجمل الأمهات التى انتظرت ابنها

أجمل الأمهات التى انتظرته

وعاد مستشهدا .

فبكت دمعتين ووردة ولم تنزو

فى ثياب الحداد .

وها نحن دائما وعلى طول مسيرتنا الصعبة نبكى دمعتين ووردة ، نترك للأجيال التى تلينا ليس دموعنا الغزيرة وإنما هذه الوردة التى تعهدناها من طينة شهدائنا من محبتهم لهذا الوطن وذلك الشعب بعماله وفلاحيه وجنوده ومثقفيه .

عندما سيقت فريدة في المرة الأولى إلى زنزانة قذرة في مبنى المباحث العامة سألها الحارس العجوز : لماذا جئت ؟ قالت : لا أدرى ولكنني عضو في حزب التجمع الذى تلاحقه الحكومة قال الحارس العجوز : حين تشتد العواصف ليس عيبا أن ينحنى الناس يا ابنتي .. تذكرى أولادك .. كيف يكون حالهم إذا تعرضتِ للحبس الطويل .

لكن لهذا الشعب حكمة أخرى غير حكمة هذا الحارس العجوز، غير حكمة الربح والخسارة وربما لم يكن هذا الحارس يعرف أن فريدة وزوجها حسين قد تركا وراءهما عندما أتيا إلى السجن طفلين في المنزل هما رشا وجاسر ، كذلك كان حال فتحية زوجة زكى مراد عندما أخذوها بعد مصرعه بشهور فتركت وراءها أربعة أطفال أصغرهم لم تكن قد أكملت عامين من العمر، وكذلك فعلوا بشاهندة زوجة شهيد كمشيش صلاح حسين الذى اغتاله الاقطاعيون في زمن عبدالناصر فتركت وراءها ابنتها الصغيرة باسمة وهي مأخوذة إلى السجن .

فريدة وفتحية وشاهندة .. هذا الثلاثى الفذ من نساء مصر فى سجون السادات لم يدعين بطولة زائفة فى هذا الموقف فكم سالت دموعهن حزنا على فراقهن لأطفالهن، لكنهن تعلمن الصبر والصمود والتواضع وكان وضوح الرؤية عاملا هاما فى هذا التماسك وتلك الصلابة .

كتبت فريدة من السجن إلى ابنها جاسر تقول : نحن يا حبيبى نعيش فى ظل هيمنة هؤلاء الذين ابتذلوا ثقافتنا الوطنية والقومية وتراثنا ليقيموا أدلة على طيبة الظالمين .. ذلك ذنب عظيم لا يكفر عنه شئ مهما كبر .. فما بالنا لو كانت كفارتهم ذلك الابتهال الزائف إلى الله والتفتيش فى القرآن الكريم لاستخراج شهادة براءة لأعدائنا .. إن صلاتهم الحقيقية يا حبيبى وقرابينهم تقدم للبنتاجون والكونجرس والكنيست فهل ننتظر من هؤلاء أن يعرفوا لغة الغياب والحضور هل تحزن يا حبيبى لأننا ننتمى إلى هذا الميلاد الصعب للعالم القادم ؟

نحن فقط نغيب بهذا العذر القاهر فلا تحزن وانتظرنا دائما.

وفى سجن القناطر كان صوت شاهندة النحاسى يدوى بحكمة القلب الذى عرف طريقه إلى تلك الحكمة من خلال المأساة .. مأساة مصرع الزوج برصاص الإقطاعيين واستشهاد شقيقها الطيار أشرف بقذيفة امريكية صهيونية فى آخر يوم من أيام حرب الاستنزاف على ضفاف القناة .

ولم تتردد عندما رأت أحد ضباط المباحث يهم بالصلاة فى أن تمسكه من ذراعه وتقول له : « إن الله لن يقبل هذه الصلاة أبدا .. تعذب الناس ثم تتصور أن المغفرة سهلة ! دا بعدك ..» كما لم تتردد فى أن تنتزع بيديها القويتين أسلاك الشباك الذى حاول ضابط المباحث أن يضعها على زنزانتها وزنزانة صافى ناز كاظم فى محاولة لمنعهما من الاتصال .

كان مكسيم جوركى يحكى للكاتب العظيم تولستوى كيف عمل فى مرحلة من حياته بستانيا فى منزل جنرال روسى من

جنرالات القيصر .. وفوجيء ذات يوم وهو يعمل في الحديقة بزوجة الجنرال تضرب إحدى خادمات المنزل ضربا وحشيا فلم يتمالك جوركى نفسه وهجم على زوجة الجنرال وضربها على مؤخرتها ! وأنقذ الخادمة لكنه فصل من عمله .

وضحك تولستوى حتى دمعت عيناه وقال لجوركى : إن لك قلبا حكيما !

بهذه الحكمة التى فى القلب كما هى فى العقل تشهد عشرات وعشرات من صفحات كتاب فريدة النقاش .

وهى تحكى قصة هذا الثلاثى من نساء مصر فى سجن القناطر فى مواجهة القضبان والمفتاح الثقيل الذى يدور كل عصر فى باب الزنزانة فيعلن عزلتهن النهائية لمدة أربعة عشر ساعة متواصلة من كل يوم :

أليس من حقنا أن نقول مع الشاعر :

أجمل الأمهات التى عينها لا تنام

تظل تراقب نجما يحوم .

على جثة فى الظلام .

لكن كتاب فريدة النقاش لا يقدم شهادة مناضلة مصرية في السجن فحسب ولا هي تقدم مجرد الرسائل الشاعرية الرقيقة التي كانت تبعث بها إلى زوجها في سجن طرة أو إلى ولديها جاسر ورشا في الخارج والتي عبرت بها عن أزمتها العاطفية لابتعادها عنهما وما يمكن أن يسببه هذا البعد والاعتقال لهما من أزمات نفسية كما عبرت بها عن صمودها الإنساني في وجه الظلم والقضبان .

كلا .. لقد قدمت فريدة أيضا في هذا الكتاب شهادة فذة عن الحياة الحقيقية في سجون مصر اليوم .. وفي سجن النساء بالقناطر بالذات عن تريزا ونظيمة المصدورتين، عن السيدة «مزاج» تاجرة المخدرات ، عن ليلى المطوة التي احترفت الدعارة، عن مأساة موت صفية التي ضبطت تمارس الجنس مع مسجونة صغيرة، عن مهندسة الديكور (ل . ح) التي تزوجت الكويتي العجوز وعاشرت ابنه الشاب ، وعن مشروع الراقصة المجهضة (صابحة) التي تذكرنا شخصيتها بزوربا اليوناني في الرواية أو الفيلم، عن سلوى التي نشلت

ساعة من إحدى تاجرات المخدرات عندما علمت أن ساعة فريدة لا تعمل وقدمتها لها تحية ومودة .

فى هذا العالم الغريب الملىء بالسل والجرب والعراك الليلى والإيقاعات الشعبية من عويل ورقص وغناء وزغاريد وطقوس ذات ملامح افريقية تمشى تاجرات المخدرات مرفوعات الرأس محصنات بما يملكن سواء فى خارج السجن أو داخله، تحتقرن كل الجرائم الأخرى باستثناء السياسة لأنهن يعرفن من خبرتهن أن الانقسام الاجتماعى الموجود فى الخارج ممتد بشكل أكثر ضراوة إلى داخل السجن، وأن الفساد والرشوة اللتين بالخارج هما سلعة عادية ومقبولة بالداخل أيضا .. ومع هذا كله ثمة عديد من المواقف الإنسانية التى لم تخطئها عين فريدة الصحفية وقلب فريدة الفنانة والتى لا يتسع الحديث عنها فى مثل هذه العجالة .

وتعترف فريدة فى النهاية أن كتابها هذا يبدو بلا ختام .. كتابا مفتوحا قابلا أبدا .. للزيادة وليس للنقصان .. فمتى يختم مثل هذا الكتاب اذن ؟

تقول فريدة : «عندما ينجح المد الديمقراطى فى إسقاط القوانين الاستثنائية وإلغاء حالة الطوارىء وإغلاق المعتقلات السياسية إلى الأبد وصولا إلى اليوم الذى تنتزع فيه الجماهير الديمقراطية وتحرسها .

وإلى أن يأتي هذا اليوم ستظل مثل هذه الكتب مفتوحة بلا ختام وستظل عيوننا أيضا مفتوحة بلا أحلام زائفة أو أوهام» .

حوار مع الدكتور عبد العظيم أنيس

ضم الدكتور عبد العظيم أنيس هذا الحوار إلى كتابه فهو يتضمن رأيه فى اليسار ويعتز بهذا الرأى، وأراد أن يكون فى خاتمة الكتاب

هناك لحظات فى التاريخ تتميز بخلط الأوراق وافتقاد الرؤية ، وتسود فيها العملة الرديئة ، التى تطرد العملة الجيدة من التعامل. ومثل هذه اللحظات تحتاج إلى العين الثاقبة التى تفرز الغث من الثمين وتحدد اتجاه البوصلة ، وتقيم حقيقة الأدوار التى تطفو فوق السطح وتتسيد المشهد . ولعل الواقع المصرى فى لحظته الهشة الراهنة - وبخاصة فى الثقافة والسياسة - هو أكبر مثال على هذا الخلط . ولعل هذا أيضا هو ما دفعنا للحديث مع الدكتور عبدالعظيم أنيس ، فهو من العيون الثاقبة فى وطن تحاصره الغشاوة . والدكتور أنيس غنى عن التعريف فهو من أكبر مفكرى اليسار المصرى اتساقا مع النفس . وذات يوم قال الدكتور جلال أمين إن لفظ مثقف لا ينطبق بحق إلاَّ على قليل منهم عبدالعظيم أنيس ليس لأنه عالم للرياضيات ولا لأنه كاتب وناقد للأدب والفكر ولكن لأنه مهموم طوال الوقت بقضايا وطنه وأمته ...

وفى هذا الحوار يرفض الدكتور أنيس أن نطلق لفظ «مثقف» على كثيرين يمتلكون معرفة عالية جدا ولكنهم يمشون بجوار الحائط في الحوار أيضا قضايا عديدة حول الأزمة الثقافية الراهنة ومؤتمر المثقفين المزمع عقده وعلاقة عبدالناصر باليسار المصرى وقصة انسحاب الدكتور أنيس فجأة من الكتابة فى جريدة «الوفد» وغيرها من القضايا .. لكننا أثرنا أن نبدأ بمعرفة رأيه فيما رواه الدكتور رفعت السعيد الأمين العام للتجمع بخصوص د. أنيس فى كتابه «مجرد ذكريات» الذى صدر أخيرا وفيه يروى أن «بريماكوف» المراسل السابق لجريدة «برافدا» السوفييتية اتصل به هو والأستاذ خالد محيى الدين موفدا من القيادة السوفييتية وطلب منهما أن يرفض حزب التجمع الموافقة على الاتفاق الأردنى الفلسطينى عام ١٩٨٤ حيث إن هذا الرفض الذى كان مطلبا للقيادة السوفييتية هو ما فعلته جميع الأحزاب اليسارية العربية ، وكان الاتفاق يقضى بضم جزء من فلسطين المحتلة إلى الأردن فى دولة واحدة .. وكان د. رفعت

السعيد وأ. خالد محيى الدين قد قررا قبول الاتفاق لإبلاغ السوفييت رسالة بأن التجمع لا يتلقى الأوامر منهم ، إلا أن الدكتور أنيس - حسب رواية د. رفعت - قاد فريق المعارضة للاتفاق فى اللجنة المركزية للتجمع بحجة أن جميع الأحزاب اليسارية العربية قد رفضته ..

سألنا الدكتور أنيس ما حقيقة القصة ؟

فقال : أولا هو حكى قصة غريبة جدا حول لقائه هو وخالد محيى الدين مع بريماكوف ، هذه القصة لم أسمع بها نهائيا ، وقال إن الحجة التى استخدمتها فى رفض هذا الاتفاق هى أن الأحزاب العربية اليسارية أخذت موقفا من الاتفاق فلماذا لا نأخذ نحن نفس الموقف وهذا غير صحيح لأن هذه الحجة لم استخدمها إلاّ فى آخر الكلام . وأحب أن أوضح فى البداية عدة نقاط أولا هو يدعى أننى قدت الحملة فى اللجنة المركزية ، ولعلمك أنا عمرى ما دخلت قيادة التجمع أبدا لأنى عندما أنشئ التجمع كنت أعمل فى المعهد العربى للتخطيط بالكويت ورجعت إلى مصر فى ٣١ أغسطس ١٩٨١ أى قبل

اعتقالات السادات بثلاثة أيام . وعلى هذا الأساس لم أكن فى القيادة . وحين وصلت فاتحنى بعض الأصدقاء أن أدخل قيادة التجمع قلت لهم لا .. أنا مستعد للمساعدة فقط وحين أشارك فى القيادة أشارك من هذه المنطقة ، حيث وجدت أن الموقف الذى حدث واعتقال الناس يستدعى أن أشارك وشاركت فعلا بكل قوة فى اللجنة السياسية دون أن أكون عضوا .

هذا معناه أنك لم توقع استمارة عضوية ؟

لم يحدث أبدا أن وقعت استمارة عضوية وكان لى وأنا فى الكويت تحفظات على التجمع ، لكن الوضع الجديد الخاص باعتقالات الناس جعل من واجبى أن أشارك وظلت هذه المشاركة إلى أن حدث المؤتمر العام سنة ١٩٨٤ والذى كانت فيه واقعة الاتفاق الأردنى الفلسطينى أو الخيار الأردنى الفلسطينى ، وفوجئت أن جدول أعمال المؤتمر لا يتضمن إدخال الاتفاق فيه لمناقشته فطالبت بوضعه فى جدول الأعمال . قالوا لابد أن يكون هناك عدد معين من الأعضاء يطالبون

بهذا المطلب ، فجمعنا توقيعات ١٢٠ عضوا من أعضاء المؤتمر فاضطروا لمناقشته ، وكنت أنا شديد الانتقاد لعرفات والقيادة الفلسطينية فى ذلك الوقت وشرحت الموقف والأسس المبدئية والسياسية التى أدعو فيها لرفض الاتفاق .

وما هذه الأسس ؟

كان الاتفاق بين عرفات والحكومة الأردنية يقوم على أساس.أنه يمكن أن تنشأ كحل للقضية الفلسطينية دولة واحدة تضم جزءا من فلسطين والأردن ، وهذا معناه أن قضية تقرير المصير للشعب الفلسطينى ، وإقامة دولة فلسطينية تكون قد انتهت ونعود للوضع القديم الذى كانت فيه الضفة الغربية تابعة للأردن ، واستمر الكلام فى المؤتمر فى الصباح وكلمتى استقبلت استقبالا حافلا إلى أن رفعت الجلسة للغداء ، وفوجئت بأن جاءنى الدكتور إبراهيم سعد الدين وقال لى: إن خالد محيى الدين يقول إذا صوتت الأغلبية لصالح وجهة نظرك فإنه سيستقيل من رئاسة التجمع ويقترح أن تعين بدلا منه . قلت له أنا غير مستعد إطلاقا لذلك ، وإذا

كان هذا أسلوب للضغط لكى نسحب القرار فنحن لا نستطيع الآن آن نفعل ذلك . وعندما جاء وقت التصويت على القرار ، لاحظت حركة غريبة من الأعضاء المتعاطفين مع وجهة نظرى، ويبدو أن مسألة تهديد خالد بالاستقالة أخافتهم فبدأوا الاتصال بزملائهم وإعطائهم تعليمات لكى يصوتوا ضد القرار أى يصوتوا ضد رفض الاتفاق حتى لا يأخذ القرار أغلبية فى المؤتمر . وتم هذا فعلا وفوجئت بورقة آخرى وقع عليها ٥٠ عضوا من أعضاء التجمع بترشيح الدكتور عبدالعظيم أنيس للمشاركة فى القيادة ووقف خالد محيى الدين وقال نحن نناشد الدكتور عبدالعظيم قلت أنا معتذر ولا أريد أن أدخل فى القيادة لأنى غير مستعد وفعلا تمت الانتخابات دون أن أكون موجودا فيها .

لماذا لم تدخل فى القيادة ؟

لأنى لم أشعر بأى جدية فى هذه القيادة وكنت أعتبر أن وجهة نظرى التى شرحتها بخصوص الاتفاق قضية أساسية لكن الاتصالات الجانبية التى حدثت خوفا من التهديد بالاستقالة غيرت القرار ، ثم إننى لم أقل إن الأحزاب العربية

اليسارية كلها رفضت الاتفاق إلا فى آخر الكلام أى بعد شرح وجهة النظر المبدئية والسياسية .

إذا لم يكن السبب لموافقة قيادة التجمع على الاتفاق هو إعطاء درس للسوفييت كما يقول الدكتور رفعت فما السبب الحقيقى إذن؟

السبب الحقيقى هو ما قيل فى المؤتمر فعلا . قالوا احنا مع القيادة الفلسطينية وما توافق عليه نوافق عليه . وأنا كان رأيى أن هذه ليست قضية خاصة بأندونيسيا فالصراع العربى الإسرائيلى يخص العرب جميعا وليس القيادة الفلسطينية فقط ويهمنا جميعا ، ونحن فى مصر دخلنا فى حروب مع إسرائيل وقدمنا شهداء وبالتالى فمستقبلنا مرتبط بهذا الصراع وعلى هذا الأساس فلا نستطيع أن نسلم رقبتنا للقيادة الفلسطينية إذا وافقت على شئ لابد أن نوافق .

هل كانت هناك مواقف مماثلة اتخذتها القيادة ؟

مثلا اتفاق أوسلو لم يعارضوه بينما عارضته كل أحزاب المعارضة المصرية والعربية وعارضه الشعب الفلسطينى نفسه

، بينما لم يأخذوا موقفا واضحا فى هذا الموضوع . أكثر من ذلك كلما كتبت مقالا فى «الأهالى» عن القضية الفلسطينية أيام حسين عبدالرازق وكان متعاطفا معى ، كان عرفات يحتج على المقال عند خالد محيى الدين وكان حساسا أكثر من اللازم . لكنهم فى موضوع كوبنهاجن لم يستطيعوا أن يأخذوا موقفا مؤيدا ، وجدوا أن المسألة ستكون فجة وتركوا لطفى الخولى يتصرف براحته وكان ينتظر تأييد القيادة لكنها لم تؤيده فاستقال ، لكنهم فى نفس الوقت لم يكن موقفهم من مسألة كوبنهاجن بالقوة الواجبة . وفى كل الأحوال فقد كنت أشعر أن قيادة التجمع منذ المؤتمر الذى ذكرناه إلى الآن أنها هى ومنظمة التحرير جبهة واحدة لا يختلفان فى أى شئ .. وجاء وقت أنه من الأفضل ألا أكون موجودا فى التجمع فقاطعت اجتماعاته لكننى لم أكتب استقالة لأننى لم أكن عضوا فيه أصلا .

هذا معناه أنك لم تلتق مع بريماكوف ولم يتصل بك ؟

عمرى ما شوفت بريماكوف ولا أعرفه خالص ، حتى عندما كان مراسلا لجريدة برافدا فى مصر لم ألتق به ، وإذا

كانوا يقولون إنهم اتخذوا هذا الموقف لكي يكون رسالة للسوفييت مضمونها أنهم لا يسمعون كلامهم . الموضوع لا يمكن حسابه بهذه الطريقة ، فإذا كان هناك خطأ فى الموقف الروسى كان يجب كشف هذا الخطأ ، وهل إذا اتخذوا موقفا ضد الاتفاق سيكون هذا معناه أنهم مع السوفييت ، الناصريون مثلا كانوا ضد الاتفاق فهل هذا معناه أنه مع السوفييت . أنا رأيى أن المواقف السياسية لا ينبغى أن تؤخذ على هذا الأساس . فالمواقف الصحيحة تؤخذ على أسس مبدئية محترمة بصرف النظر عن أنها من السوفييت أم لا .. ببساطة الاتفاق الأردنى الفلسطينى كان معناه فى وقتها إلغاء حق تقرير المصير للشعب الفلسطينى وإقامة دولته المستقلة فرفضته ..

لاحظ الناس أنك بدأت تكتب مقالا أسبوعيا فى «الوفد» وبعد مدة قليلة امتنعت فجأة عن الكتابة فلماذا ؟

أنا لم أسع للكتابة فى الوفد وإنما هم الذين سعوا لأكتب عندهم . وكان ذلك فى إطار تغيير شكل الصحيفة بعد

الانتخابات الأخيرة ، فقد استقروا لاستكتاب عدد من الكتاب من خارج الوفد يمثلون اليمين واليسار والوسط . وفوجئت باتصال رئيس التحرير بى وقال لى وقع عليك الاختيار كممثل لليسار ونريدك أن تكتب مقالا اسبوعيا كل يوم سبت فطلبت منه مهلة للتفكير ثم وافقت . وكتبت المقال الأول عن ذكرياتى مع التيار اليسارى فى الوفد والطليعة الوفدية . فأنا نشأت فى عائلة وفدية وكان أخى إبراهيم شاعرا وكان يخطب أمام سعد زغلول ، المهم كانوا سعداء بهذا المقال باعتباره مقالا عن ذكريات جميلة ، وأرسلت المقال الثانى فنشروه في موعده ، وفى المقال الثالث فوجئت أنهم لم ينشروه . وظهر مكانه مقال عن مسلسل «أوان الورد» لصافيناز كاظم اتصلت برئيس التحرير فى المكتب وفى البيت وعلى المحمول فتهرب منى لمدة ٤ أيام .

ما موضوع المقال ولماذا لم ينشر ؟

كان عن حقيقة أوضاعنا الاقتصادية ، وأنا دائما فى مقالاتى أقسمها إلى موضوع رئيسى وموضوع جانبى .

الموضـوع الرئيسى كـان عن حـقيـقـة أوضـاعنا الاقتـصـادية والجـزء الجـانبى كـان عن عـودة المفـاوضـات الفلسطينيـة الإسرائيلية . وكنت بالطبع ضد عودة المفاوضات لأن عودتها لا تخـدم سـوى كلينتـون الذى يريد قـبل خـروجـه من البـيت الأبيض أن يفعل شيئـا يكتب له فى التـاريخ بعـد فـضـيحـة مـونيكا ويريد أن يحـصل على جـائزة نوبل ، ومـفـهـوم أيضـا مـوقف باراك الذى يدخل انتـخـابات جـديدة ، ويريد أن يظهـر بمظهر رجل سلام ، وقلت: إن هناك إجماعا من جميع القوى الوطنيـة والإسـلامـيـة بما فى ذلك منظمـة فـتح ضـد عـودة المفـاوضـات وداعـين لإضراب عـام لترك هذه المفـاوضـات وقلت إن مـا لم أفـهـمـه هو مـوقف عـرفـات والحكام العـرب الذين يساندونه وأظن أن هذا هو السبب فى عدم نشر المقال .

لكن المقال نشر بعد ذلك فلماذا تظن هذا الظن ؟

المقال نشـر بعد موعده بأسبوع وبعد أن اتصل بهم عدد من الناس وسـألوهم لماذا لم يظهر مقالى ، ونشر المقال بعد أسبوع من موعده أفقده قيمته لأن الأحداث سارت فى مسار

آخر وأصبح مثل الكلام البايت ، وأنا أخمن أن السبب في عدم نشره هو الجزء الخاص بالمفاوضات لأنهم ينشرون كلاما كثيرا عن المشاكل الاقتصادية لكن يبدو أن الكلام في القضية الفلسطينية يتعاملون معه بحساسية فهناك تصريح لنعمان جمعة قال فيه نحن لا نزايد على الرئيس مبارك في موضوع فلسطين ، بعد ذلك اتصل بي رئيس التحرير وبرر عدم اتصاله السابق بكثرة مشاغله في الجريدة وقال إن عدد الكتاب كبير لهذا سوف يجعلون الناس تكتب كل أسبوعين فاعتذرت .

ننتقل من السياسة إلى الثقافة ، وهناك طبعا الأزمة التي وقعت في وزارة الثقافة بسبب الروايات التي تتضمن مشاهد جنسية وعزل على أبو شادي من رئاسة هيئة قصور الثقافة واعتراض المثقفين .. ما رأيك ؟

نحن أصدرنا بيانا عندما وقع عزل على أبو شادي وكشيك وأبو العلا واعتبرنا أن هذا بمثابة عمل هجومي ضد تيار متقدم داخل وزارة الثقافة من أجل القضاء عليه نهائيا وأن

الوزير بهذا العمل يحاول أن يلبس عمامة شيخ الأزهر . وكان عدد كبير من المثقفين قد اتصلوا بى وقالوا: إن لديهم بيانا يتضمن هذه الأمور وطلبوا توقيعى قلت أوقع ، ونحن رفضنا التعامل مع وزارة الثقافة خصوصا فى موضوع المشاركة فى أنشطة معرض الكتاب .

ما رأيك فيما قيل عن الروايات ؟

أنا لم أقرأها ، ولكن قيل: إنها تتضمن تلميحات جنسية ، ومع ذلك فالأدب له قواعد وأصول تختلف عن الكتابة الأخرى ، فإذا كانت هناك مثل هذه التلميحات فينبغى أن ينظر للموضوع بمنظور الإبداع الفنى وليس بمنظور الإثارة الجنسية ، ثانيا هناك قصص وروايات كثيرة فيها مثل هذه الأشياء مثل قصص إحسان عبدالقدوس وغيره لدرجة أن أحد الناشرين لقصص إحسان قام بتغييرات فيها وحذف المشاهد الجنسية فرفع ابنه قضية ضد الناشر لأنه ليس من حقه أن يغير فيها . وقصص نجيب محفوظ الأولى فيها تلميحات جنسية . والحقيقة أن هناك تقييمات مختلفة للروايات التى

أثارت الأزمة ، على سبيل المثال كتب إدوار الخراط مقالا عن رواية «قبل وبعد» في «أخبار الأدب» طلعها السما ، وإدوار الخراط ليس أديبا بسيطا . في العدد الأخير من «العربي» كتب فتحي عامر أن الروايات تافهة لكنه قال: أنه غير موافق على المصادرة ، يعني هناك تقييمات مختلفة لذلك فأنا رأيي أن عملية المصادرة عملية خطرة جدا مهما كان فيه من تلميحات جنسية لأن الرواية لا يطبع منها أكثر من ٣ آلاف نسخة ولا يقرؤها أكثر من ٣٠٠ أو ٥٠٠ من ٦٥ مليونا وإذا كان هناك خطأ فلا شك من ضرورة إصلاحه بأن تكون هناك لجان قراءة محايدة وممثلة لكل الاتجاهات الفنية، ثم لماذا كان الوزير ساكتا كل هذا الوقت على موضوع لجان القراءة ويأتي بعد ذلك ليقول: إنه كان معتمدا على على أبو شادي لكي يكون رقيبا على الإبداع . رأيي أن الحل ليس في إقصاء هذه القيادات التي تمثل اتجاها متقدما في الوزارة ..

هل تعتقد أن السبب الرئيسي لتصفية هذه القيادات هو موضوع الروايات فقط ؟

من الواضح آن الوزير وقع فى حالة فزع عندما تقدم بعض رموز الإخوان فى مجلس الشعب يطلب الإحاطة. وكان قد سبق أن هوجم فى موضوعات كثيرة جعلته يشعر أن على رأسه ١٠٠ بطحة منها موضوع الآثار وموضوع احتفاله بالألفية وإنفاقه الملايين عليها ومعروف أنه كلف بها ميشيل جار وأنا مؤيد لنقد الوزير فى هذا الموضوع .

ما رأيك فى أن تقيم وزارة الثقافة مؤتمرا للمثقفين دعى إليه الأستاذ محمود أمين العالم كما يقول الوزير ، بالمناسبة ما رأيك أيضا فى مشاركة الأستاذ العالم فى أنشطة الوزارة؟

الأستاذ العالم له وجهة نظر وحدها تماما فى هذه المشاركة . حتى لو لم نكن نتفق معه حول موضوع تعاونه مع وزارة الثقافة أظن أنه يعبر عن هذا الموضوع بقوله: إنه يتعامل مع الدولة المصرية وأنا لا أرى فرقا بين الدولة المصرية ونظام الحكم وأنا طبعا أحترم رأيه لكن لى موقفا مختلفا فى هذا الموضوع فهو يرأس لجنة الفلسفة فى المجلس الأعلى

للثقافة وأنا لم أقبل نهائيا أن أدخل لجنة الثقافة العلمية فى المجلس واعتذرت .

وماذا عن مؤتمر المثقفين ؟

مؤتمر المثقفين خطر من الأساس أن تتبناه وزارة الثقافة ، أنا لا أعترض على مؤتمر للمثقفين ولكن اعتراضى على تبنى وزارة الثقافة له . ووزارة الثقافة هيئة حكومية وعلى هذا الأساس فالمؤتمر معرض لأن يكون ركيزة لدعم النظام . لأن المثقف ما هو؟ المثقف ليس المتخصص فى علم من العلوم مثل الكيمياء أو التاريخ، المثقف هو الإنسان المهموم بشئون البلد ولديه الثقافة العامة وليست كل الناس التى لديها معرفة أو تخصص مهمومة بشئون البلد ؛ وهناك كثيرون لديهم معارف واسعة ولكنهم يسيرون بجوار الحائط لهذا فهؤلاء غير مثقفين ، والمثقف لابد أن يكون مستقلا عن الدولة ونظام الحكم لكى يكون مثقفا بالمعنى الحقيقى .

إذن ما تصورك لمؤتمر المثقفين البديل ؟

مؤتمر المثقفين يجب أن تنظمه هيئة شعبية مستقلة عن وزارة الثقافة وممثلة لكل الاتجاهات الفكرية والثقافية المختلفة يعني لابد أن يكون فيه الناصريون واليساريون والليبراليون والاتجاهات الدينية المستنيرة والقوى الوطنية على أن يكون مؤتمرا للمثقفين المصريين والعرب وتوجد فيه كل القوى الوطنية التي ترى أهمية التصدى لإسرائيل أما فكرة أن يحتضن وزير الثقافة هذا المؤتمر فسوف يتحول إلى تأييد للنظام وهذا غير المطلوب طبعا ، إذن لابد من وجود لجنة شعبية مستقلة للقيام بهذا المؤتمر ثم يأتي بعد ذلك مؤتمر للثقافة العربية يشارك فيه المثقفون العرب لأن الثقافة بمعناها العميق مفروض أن تكون آساسا لكل العمل الوطني وأنا رأيي أن النقطة الأساسية في مؤتمر مستقل للمثقفين هي التأكيد على هويتنا القومية كعرب ومناضلين ضد الإمبريالية وضد إسرائيل والصهيونية وسوف يكون لهذا المؤتمر مهمة أساسية وهي تشجيع قوى أخرى حينما يرون تحرك المثقفين فيتحركون لأن من أكبر المشكلات التي نعيش فيها هي

إصرار النظام على أن يحكم بالأحكام العرفية منذ عام ٨١ حتى الآن وليس صحيحا أن قانون الطوارئ لا يطبق إلا على تجار المخدرات والدليل ما حدث لطلاب الأزهر وإصرار النظام على الحكم بالأحكام العرفية يأتى من شعوره أنه لا يستطيع أن يحكم إلا بالبطش ولهذا فهناك قوى كثيرة مترددة وعندما يتحرك المثقفون من خلال مؤتمرهم سوف يتحركون .

لكن هناك أزمة فى المثقفين أنفسهم ؟

الأزمة سببها افتقاد الحرية ، فالمثقفون غير قادرين على التجمع فى ظل الأوضاع الحالية ، ولعل فكرة الدعوة لمؤتمر المثقفين المستقل أن تكون بداية للخروج من هذا المأزق ، هناك مشكلة أخرى وهى أنه ليس كل المثقفين مستعدين للدخول فى مخاطر العمل الوطنى .

ما قصة رئاستك لدار الكاتب العربى التى أصبح اسمها الآن الهيئة المصرية للكتاب ؟

أنا كنت رئيسا لدار الكاتب من نوفمبر ١٩٦٧ ولمدة عام وبدأ هذا الموضوع عندما تلقيت مكالمة من وزير الثقافة ثروت

عكاشة ، وكنت ألقى محاضرة على طلابى فى الجامعة ودخل على فراش أثناء المحاضرة وقال لى وزير الثقافة على التليفون قلت له سأكلمه بعد انتهاء المحاضرة وكلمته . فقال لى أريدك أن تأتى إلى الوزارة اليوم الساعة الثانية للحديث فى موضوع مهم وعندما تأتي ستعرفه ، وذهبت فى الموعد فقال أنا كنت عند الرئيس عبدالناصر وكما نتكلم فى تعيينات فى وزارة الثقافة ، وكان يرأس الدار فى هذا الوقت محمود أمين العالم، وكان على الراعى يرأس مؤسسة المسرح فحدث خلاف بينه وبين الوزير وخرج على الراعى من مؤسسة المسرح ونقلوا العالم من دار الكاتب العربى إليها . ويبدو أنهم سألوا محمود أمين العالم : من الذى يتولى بعدك فاقترح اسمى . الوزير قال لى: إنه كان يتكلم مع عبدالناصر حول التعيينات فقال لهم خذوا فلانا وأنا تقديرى أن اسمى عرض على الرئيس فلم يعترض . قلت للوزير أنا غير متحمس لترك عملى فى الجامعة فقال هذه هى توجيهات الرئيس . قلت له إذا كان الموضوع كذلك فلأذهب إلى رئاسة الدار معارا من الجامعة فوافق،

كانت هناك مشاكل مالية كبيرة فذهبت إلى نزيه ضيف وزير الخزانة وحصلت منه على قرض بحوالى ٦٥٠ ألف جنيه لحلها .

هل كان هناك تدخل من النظام أو من عبدالناصر لنشر كتب بعينها أو رفض كتب أخرى ؟

لا .. لا .. هذا لم يحدث إطلاقا ..

هل منع كتاب من النشر ؟

أنا لم أسمع أن كتابا منع من النشر ، لكن ما سمعناه أيامها أن رواية نجيب محفوظ «أولاد حارتنا» كانت تنشر فى الأهرام فتدخل الغزالى لمنعها لأن فيها إشارات للأنبياء والله وقال عبدالناصر تستمر فى نشرها مسلسلة فى الأهرام لكن لا داعى لإصدارها فى كتاب الآن .

هل كان مسموحا بإصدار كتب تنتقد النظام .

الفترة التى تجاءت بعد ١٩٦٧ كانت من أكثر الفترات فى حرية الكتاب بدليل أن رواية ثروت أباظة «شئ من الخوف» وكانت تنتقد النظام بشدة نشرت ، وبدليل روايات أو

مسرحيات عبدالرحمن الشرقاوى وكانت كلها تلقيحا على النظام كانت تنشر وكان الشرقاوى معاديا للنظام بسبب موضوع أخيه عبدالمنعم .

إذن ما الذى بقى من فكر عبدالناصر ؟

بقيت أشياء كثيرة جدا سيظل بسببها عبدالناصر محلا للهجوم من القوى الرجعية فى العالم العربى والتى لا تهتم بقضية الصراع العربى الإسرائيلى فعبدالناصر هو العدو الرئيسى لهذه القوى فى هذا الموضوع بقى عبدالناصر الذى أمم القناة وتصدى للعدوان الثلاثى وعمل مؤتمر باندونج وآمن بالوحدة العربية ومن ضمن الأشياء التى لابد أن تذكر لعبدالناصر اهتمامه بشكل واضح برعاية الطبقات الشعبية ولاشك فى أن الشعب المصرى تحسنت أحواله الاجتماعية فى عهد عبدالناصر وعما كان قبله وأن أحوال الشعب المصرى ساءت كثيرا بعد وفاة عبدالناصر ويذكر لعبدالناصر أنه كان زعيما وطنيا بمعنى الكلمة ويذكر له الإصلاح الزراعى وتمصير البنوك والشركات والتأميمات التى تمت وأن

مصر لم ترفع رأسها في يوم من الأيام مثلما رفعتها في عهد عبدالناصر ، كل هذا حقيقي وكل هذا - من ناحية ثانية - لا يمكن أن ينسينا أن العودة الوحيدة للنظام هي قضية الديمقراطية وقضية الديمقراطية تمت معالجتها بشكل سلطوي لم تكن هناك ضرورة ماسة لها ولم تكن هناك ضرورة ماسة للسجون والمعتقلات وإعدام خميس والبقري كما أن عبدالناصر أخطأ في حساباته في موضوع الوحدة مع سوريا عندما اعتمد على عبدالحكيم عامر في سوريا وهذا أدى إلى مشاكل كثيرة بدليل أن قادة الإنقلاب على الوحدة كانوا من الضباط السوريين في مكتب المشير .

بالنسبة لإعدام خميس والبقري عبدالناصر كان رافضا هذا الموضوع ، ولكن بالنسبة للوحدة ألا ترى أن الأحزاب الشيوعية أخطأت في تقديرها للوحدة في ذلك الوقت ؟

أنا رأيي أن الأحزاب الشيوعية أخطأت أيضا في مسألة الوحدة عندما تصورت أن تفاهم عبدالناصر المؤقت مع الأمريكان أيام الأزمة بينه وبين خورشوف هو تفاهم أبدي

وهذا أثر على تقديرات الشيوعيين لأن الأحداث أثبتت أن تفاهم عبدالناصر مع الأمريكان كان مؤقتا واختلف معهم بعد ذلك .

قلت إن القوى الرجعية ستظل دائما فى صراع ضد عبدالناصر؟

هذا صحيح بدليل أننى وصلتنى أمس رسالة من السعودية مجهولة التوقيع ومكتوبة على الآلة الكاتبة كلها هجوم وسباب فى عبدالناصر وللتضليل وضعوها فى ظرف بمبى كأنها جواب غرامى رغم أنهم لم يخطئوا العنوان ، يقول صاحب الرسالة : يا أخى أنا مجنون منك ، أنت لم تضطهد فى حياتك كما اضطهدت فى عصر عبدالناصر ، ومع ذلك لا يوجد من يدافع هذا الدفاع المجيد عنه مثلك ، قلت لنفسى هذا صحيح والسبب أننى لا أحكم على المرحلة الناصرية بدلالة ما حدث لى وحدى ولكن بدلالة ما حدث للشعب كله ورأيى أنه إذا كان الإنسان سياسيا مسئولا لابد أن يكون

هذا هو موقفه لا أن يقول فقط أنه كان يسير حافيا في معتقلات عبدالناصر وأن .. وأن .. وإن كان كل هذا صحيحا ولابد أن يعرف .

ننتقل إلى موضوع التعليم خصوصا وأنك أستاذ جامعى ولك رأى فيما يحدث فى التعليم الآن ؟

الفكرة الأساسية التى لابد أن تقال الآن هى أن مصر غير مستعدة للإنفاق على التعليم بالطريقة التى تجعل مستواه جيدا .. هم يقولون إن ميزانية التعليم زادت من ٤ مليارات إلى ١١ مليار جنيه وينسون السنة التى كان ينفق فيها على التعليم ٤ مليارات وخلال هذه الفترة كم مرة زاد فيها عدد السكان وكم مرة انخفضت فيها قيمة العملة بسبب التضخم ، المعيار الحقيقى أن نرى ما ينفق على الطالب بالأسعار الثابتة .. الوزير قال ما ينفق علي الطالب ٧٥ جنيها فى العام بينما يصل الإنفاق على الطالب ٢٧٠٠ جنيه فى الخارج وفى إسرائيل . المشكلة إذن هى مشكلة تمويل . وعندما حضر عاطف عبيد اللجنة التحضيرية لمؤتمر التعليم الثانوى قال هذا

بشكل واضح وقال نحن بحاجة إلى بناء ١٢٧ ألف مدرسة خلال السنوات العشر المقبلة وما بناه حسين كامل بهاء الدين لا يزيد على ألف مدرسة . والتفكير القائم عندهم لحل مشكلة التمويل هو عمل مدارس متميزة بمصروفات زائدة لجمع أموال من أولياء الأمور لبناء مدارس جديدة . وفى المؤتمر وقف أستاذ من جامعة حلوان وقال هذه الطريقة ستؤدى إلى شرخ فى المجتمع المصرى أنا رديت وقلت الشرخ حدث فعلا.. لذلك أنا رأيى أنه رغم الجهود التى بذلها بهاء الدين لم يكن من الممكن أن ينجح فى حل مشاكل التعليم .

لماذا ؟

لأنه بسبب ظروف الانفتاح وجدت المدارس الخاصة التى لم تكن موجودة فى مصر من قبل مثل ما هى موجودة الآن ووجدت المدارس الأجنبية والدروس الخصوصية التي انتشرت بكثرة وهذه الأمور كلها أدت إلى فشل مشروعات حسين كامل بهاء الدين بينما نجح الانفتاح .

الفهـــرس

رقم الايداع
٢٠٠٢/٩٥٣٣
977 - 07 - 0845 - 3

روايات الهلال
تقدم

اسرار حميمة

تأليف :
نوريا أمات

يصدر ١٥ يونيو ٢٠٠٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

كتاب الهلال
يقدم

الأيك
فى المباهج والأحزان

بقلم
عزت القمحاوى

يصدر ٥ يوليو ٢٠٠٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

قريبا بالأسواق

كتاب الهلال

باريس

دكتور

زكى مبارك

هذا الكتاب

ذكريات من حياتى كتاب جديد للدكتور عبدالعظيم أنيس الذى ينتمى إلى رفقةعظيمة من مثقفى مصر العظام.

وهو أحد كبار علماء الرياضيات المعروفين عالميا فى مجال الرياضة البحتة واسهاماته متعددة فى تعديل المناهج الدراسية وتطويرها بالإضافة إلى اسهاماته الثرية والمثيرة والجريئة فى مجال الفكر والثقافة والسياسة ، فهو مفكر إنسانى محب لبلده ووطنه صاحب مبدأ لا يتغير مدافعا عن حق بسطاء الناس فى الحياة الكريمة واشتهر بمعاركه الأدبية والسياسية وكان من رواد المعركة ضد القديم .. معركة من أجل أدب جديد تحت شعار الأدب فى سبيل الحياة.

ومعاركه السياسية من أجل الحق والحرية ومن أجلهما سجن لست سنوات وتعرض للفصل والتشريد عدة مرات وكل ذلك لم يؤد إلى تخليه عن مواقفه لحظة واحدة.

وهذا الكتاب يكشف العمق الإنسانى والمعرفى لفهم د. عبدالعظيم أنيس المفكر والأديب والسياسى وعالم الرياضيات فهو نسيج من العلم والمعرفة المتكاملة سيجد فيه القارئ فوائد جمة لاستخلاص دروس من تلك المحطات المتنوعة فى حياة الدكتور عبدالعظيم أنيس حيث مر بظروف قاسية وصعبة واشتغل بأعمال متباعدة سنوات مختلفة من حياته فهو فى الأصل كان أستاذ رياضيات فى جامعات مصر الثلاث «القاهرة - عين شمس - الاسكندرية» وقام بتدريسها أيضا فى إحدى كليات جامعة لندن ورغم ذلك اشتغل بالصحافة وتخصص فى الشئون العربية.

وهو مشوار طويل من الخبرة الثقافية والعالمية والمشاركة السياسية الثرية يحكيه بصدق وهو غير نادم على أى شئ خلال الثمانين عاما.

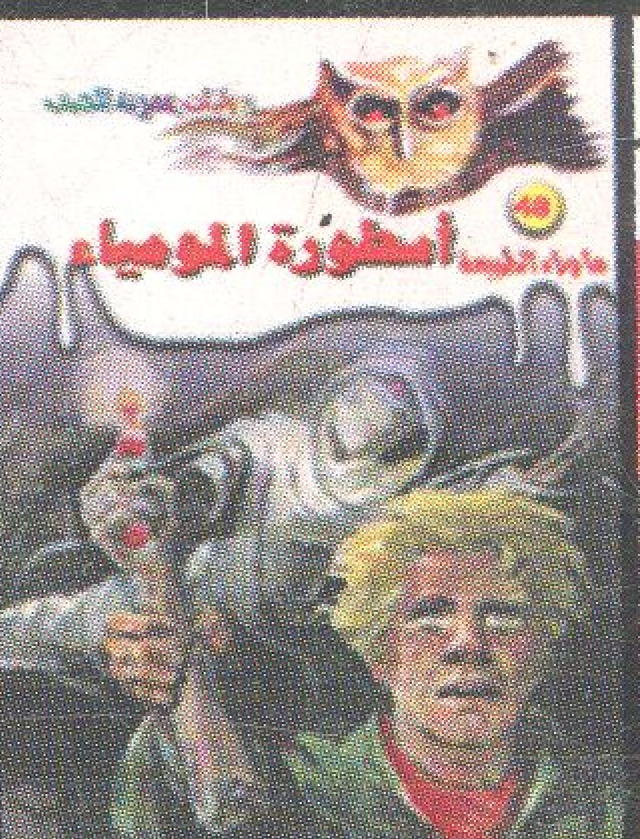


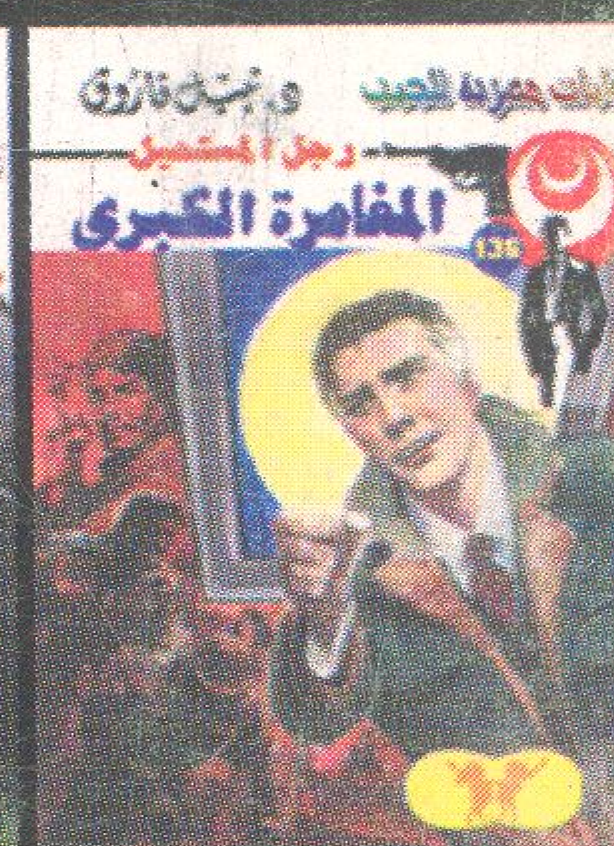
روايات مصرية للجيب

أجمل أوقات الفراغ تقضيها
مع باقة من أمتع القصص والروايات















روايات مصرية للجيب

معشوقة شباب العالم العربي
من مشرقه إلى مغربه

تأليف مصري
لا ترجمة لا اقت

